مدينة الباب

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : مدينة الباب
اسم المؤلف: كريم سعيد
التدقيق اللغوي: إسلام أحمد جاد
تصميم الغلاف: مصطفى كمال
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٦٥٤٧ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٧٥-٤

مَسَار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

مدينة الباب

كريم سعيد

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى الشعب الحر..

مقدمة

أولا أحييك أيها القارئ، لحصولك على هذا الكتاب، سنذهب معًا إلى مغامرة، أنا وأنت فقط، مغامرة شاقة، ربما نكون أصدقاء وإخوة في نهايتها، واعلم أنها ليست رواية خيالية فقط، فكل ما تمر به في حياتك من مشاعر ومواقف وأحداث وألم وحزن ستقرأه بعينك، هذه هي أول كتاباتي وليست الأخيرة، والآن ستقيِّم هذا بتجربتك معي، لذلك اهتم بكلماتي عبر بعض السطور، فإنني أحدثك أنت فقط، وسأنصت إلى رأيك بكل اهتمام، تحياتي لك.

مدينة الباب

الباب، هي مدينة تابعة إدارياً لمحافظة حلب في الجمهورية العربية السورية تقع في الجهة الشمالية سوريا على بعد ٣٨ كيلومتراً من مدينة حلب.

اعتبارًا من ديسمبر ٢٠١٦، أصبحت المدينة تحت سيطرة الميليشيات الموالية لتركيا، كجزء من الاحتلال التركي لشمال سوريا. تقع مدينة الباب على بعد ٤٠ كيلومتراً شمال شرق حلب، و٣٠ كيلومتراً جنوب الحدود التركية، وتبلغ مساحتها ٣٠ كيلومتراً مربعاً ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٤٧١ مترًا.

وفقًا للمكتب المركزي للإحصاء بلغ عدد سكانها ٦٣٠٦٩ نسمة في عام ٢٠٠٤. ارتفع عدد السكان إلى حوالي ١٠٠٠٠٠ خلال الحرب الأهلية السورية.[٢] قبل الحرب الأهلية السورية، كان سكان الباب يتألفون من أغلبية عربية سنية وأقلية كردية خارج وسط المدينة.

يعمل أهل المدينة في التجارة والصناعة والزراعة وتصدر مدينة الباب كافة أنواع الجبنة والألبان إلى بقية المدن السورية ويشتهر أبنائها بحرفة الحدادة.

قرية البشندي ٢٠١٤

في منتصف الليل

كانت مليئة بالنجوم، خالية من الطيور، يشع منها ضوء القمر، وتنزل منها قطرات من المطر لتزين سماءها، وتملأ أرضها الزراعية، حتى تأتي بالأفكار لصاحبها ليًلا، وتذهب مسرعة في الصباح مع شروق الشمس، وبعيداً عن ضوضاء العالم، وثرثرة أهل القرية، كان جالسا منفرداً على مقعده، يحدث نفسه، فوق سطح بيته المكون من طابقين، مع بضعة أوراق وقلم، وبجانبه مصباح ينير له، مثلما تنير النجوم السماء، حتى نظر برأسه إلى السماء التي ازدادت أمطارها، لعلها تأتي بكل أفكارها، ويكتب أخيرًا.

سريعًا كنت أقترب من المنزل، ولا أرى شيئًا، والظلام يملأ المكان، ولا أرى شيئًا تحت قدمي، كنت أجري بمفردي بسرعة، علهم لا يأتون هنا، كنت خائفًا ومصابًا بكدمات في جسدي، ولا أعرف كيف أداوي جراحي هذه، أريد الذهاب لبيتي قبل النهار، وها هو البيت أتجه إليه، حتى دخلت وأغلقت الباب جيدًا، وراقبت.

***

كان ذلك جزءًا من روايته الفلسفية التي يكتبها، ولم ينتهِ منها، كان يونس شابًا بسيطًا، يعيش وحده في منزله الريفي، عمره ثمانية وعشرون سنة، ودرس في كلية الحقوق التي كان قليل الحضور فيها، بسبب عمله في إحدى

الأراضي الزراعية المجاورة له، ومع ذلك فإنه تقدم على زملاءه في الدراسة، ففهم جميع المواد دون اللجوء إلى الجامعة، عن طريق أصدقائه الذين يرسلون له المحاضرات، وكان له عيون زرقاء وشعر ناعم مائل إلى الجانب، كان ذا جسم رياضي جيد، ولياقة بدنية عالية، وكان عاطلًا حتى الآن بسبب قلة العمل في معظم الأرياف، وكان يمضي وقته إما في البحث عن العمل ليحسِّن من معيشته ودخله، ويتمكن من طباعة أول كتاب له، والوقت الآخر يمضيه مع عم إدريس الرجل الذي يسكن الطابق العلوي فوقه، وهو أيضًا من رعاه ورباه، فلم يعرف غيره، فلم ير والديه منذ الصغر، حتى أخبره عم إدريس ذات يوم بأنهما ماتا في حادث.

***

كانت تجري مسرعة بين غرف القصر وبين يديها طفلها الذي لا يتعدى عمره سنة واحدة، تجري وتجري ولا تعلم إلى أين تهرب بعد أن زاد ازدحام الناس داخل القصر، يكسرون ويخربون كل ما أمامهم، ثم خافت أكثر وأكثر ولم تعرف ماذا تفعل، وقفت منهارةً في بكائها وخوفها في زاوية من ساحة القصر، سمعت صوت الضجيج العالي ولم تعد تشعر بصوت ابنها الذي بدأ في البكاء بصوت عالٍ، أطاح الناس بكل ما أمامهم من أثاث، وضربوا كل من كان غريبًا، ثم صعدوا إلى غرف الملك ليطيحوا بكل ما فيها من أشياء رميًا من نافذتها من الأعلى، هلل سكان القرية أكثر وأكثر في فرح، ثم فتحت بوابة القصر الحديدية أمامها، وخرجت منها سريعًا بين الناس، تجري في طريقها وبين يديها ابنها يزداد في بكائه، ثم وقفت أمام منزل لم تعرفه، تلتف

حولها يمينًا ويسارًا، لتلقي بابنها أمام المنزل وتهرب مسرعة في الطريق خوفًا، أتى رجل يحمل صندوقًا خشبيًا مليئًا بالأتربة أمام منزله، يتعجب من هذا الطفل أمامه، أخذه من الأرض وينظر له في تعجب ويبدأ في مسح جبينه، وصعد به إلى منزله ومعه الصندوق، فتحت عين يونس فجأةً وأخذ يأخذ أنفاسه سريعًا، ثم مد يده وشرب القليل من الماء وهو ينظر إلى سقف بيته ليلًا، وأدرك أنه حُلمٌ، فتعجب وعاد إلى النوم من جديد.

في صباح اليوم التالي، مع شروق الشمس، ويونس غارقٌ في نومه علي سريره.

عم إدريس: يونس استيقظ يا ولدي قد طلع النهار علينا.

يونس: نعم يا عمي، ما الخطب؟

إدريس: صباح الخير، أريدك أن تساعدني الآن في فتح مكتبتي، هيا استيقظ لنذهب.

يونس: حسنًا يا عمي، سأبدل ملابسي الآن، وسأذهب معك.

كان رجلًا في السابعة والسبعين من عمره، يمسك عصا سوداء تسنده دائمًا، كانت ذقنه تلمع بلونها الأبيض، مع جلبابه الرمادي الطويل، يتميز بالحكمة والوقار والثقافة العالية، بقراءته كثيرا من الكتب الفلسفية، كان أهل القرية يستشيرونه في مسائلهم الشخصية، ففاز بمحبتهم لنصائحه الصائبة.

اتجه يونس مع عم إدريس وساعده مثلما اعتاد كل يوم، كان يساعده

دائمًا لحبه له، وشعوره تجاهه بأنه أبوه الذي لم يره يومًا، ولأنه عوضه عن هذا كثيرًا، فهو من رعاه منذ صغره ونشَّأه على حب القراءة والكتابة والعلم والمعرفة منذ الطفولة، ولأن يونس لا يفعل أمورًا كثيرة في يومه، فكان يوميًا يجلس معه ومع كتبه يفيد منها، ويحاول معرفة كل جديد في هذا العالم، وكان هذا الوقت الممتع له، أما عن عم إدريس فكان وحيدًا لم يتزوج أبدًا، كان يدرك أن يونس هو ابنه الذي لم يأتِ به، حتى صار أقرب أصدقائه الذي يأتنس به في كل أمور الحياة، حتى إن حدث شيئًا بين أصدقائه يخبره في الحال، يتعلم منه العديد من الأمور الطيبة.

فتح يونس المكتبة، ودخل خلفه عم إدريس، كان المكان أشبه بالمتحف الأثري القديم، على شكل دائرة صغيرة، فيه رفوف عالية تحمل الكتب حتى السقف يمينًا ويسارًا، وصور لعدة علماء خلف مكتبه الكبير الذي يجلس عليه في منتصف المكتبة، وعديد من الكتب القديمة بجانب كرسيه الكبير المُغَطَّى بالأتربة، وعدد من ذكريات عم إدريس في عدة صور معلقة على الحائط، في كل مرة يدخل يونس إلى مكتبته، يراوغه فضول لمعرفة مزيد عن هذه الكتب القيمة، وقف في منتصفها وينظر إلى أعلاها يمينًا ويسارًا، بعد أن جلس عم إدريس على كرسيه، وقال يونس: هل قرأت جميع هذه الكتب هنا يا عمي؟

إدريس: نعم يا ولدي، ومن الممكن أيضًا أن أخبرك بما في كل كتاب بالتفصيل.

يونس: حقًا؟ إنها كثيرة جدًا.

إدريس: أعلم ذلك يا يونس، ولكن لم أقرأ هذه الكتب في يومين، إنها استغرقت مني عدة سنوات وعمرًا كاملًا، لأدرك قيمتها حقًا.

يونس: نعم، هذا شيء ثمين.

جلس يونس على كرسي آخر بجانبه، ثم قال إدريس: أريدك أن تخبرني، هل بحثت عن عمل أم كالعادة؟

يونس: كالمعتاد يا عمي، لم أحظَ بعمل في هذه القرية.

إدريس: وما الذي تنوي أن تفعله؟

يونس: لا أعلم يا عمي، تعبت كثيرًا ومللت من مرور سنواتي هكذا، أريد أن أفعل شيئًا جديدا يغير مجرى حياتي، أريد أن أدرك قيمتي حقًا بين الناس ولكن لا شيء جديد، لا أعلم ما الذي أنوي فعله.

إدريس: حسنًا، لك حل مؤقت، أريدك أن تعمل معي هنا دائمًا، قد كبر سني ولم أعد أتحمل الذهاب والعودة من بيتي، تجلس هنا مكاني، وتبحث عن عمل في وقت آخر حتى يأتيك بإذن الله تعالى، وأنا أدرك أن مستقبلك يبتسم لك.

يونس: حسنًا، هذا حل صائب.

إدريس: حسنًا، لك المكتبة بعد هذا اليوم.

يونس: اتفقنا.

ثم جلس الاثنان يتناقشان في أمور الحياة العديدة، مثل الكتب والزواج

والدين والخيال والماضي والحاضر، هذا الحديث لا يمل منه أي إنسان، فأمور الدنيا تعني الكثير لنا، وأمور الدين تعني الحياة لنا أيضًا.

أكد عم إدريس على يونس أن يفتح باكرًا ويكون المسئول عن المكتبة منذ ذلك الحين، ثم ذهب كل منهم إلى طابقه بعد حديث دام يوما كاملا وقد نسي أن يخبر عمه بحلم رآه الليلة الماضية، فقال لنفسه: لم يعد مهما.

استيقظ يونس مبكرا مع ظهور نهار قريته، ثم تريض قبل ذهابه، ثم أفطر، وخرج متجها إلى المكتبة وفتحها، ثم نظف بعض الكتب ونظمها على رفوفها، واكتشف بها كثيرا من الكتب لم يكن يعرفها، وبعضها قد مرت عليه السنوان الطوال، فتعجب وقال في ذهنه: هذا الرجل كان سارقًا حقًا في شبابه، ما كل هذه الكتب؟

***

مرت الأيام على يونس في المكتبة ثم مرت شهور والحال كما هو، لا جديد، اليوم يتكرر، حتى عاد الملل يتسرب ثانيةً إليه، ثم جاء يوم لم يكن في الحسبان، فقد دخل عليه المكتبة صديقه أيمن مسرعًا، قائلا: يونس، يونس.

يونس: ما بك يا أيمن، وماذا حدث لك حتى تأتي هكذا؟

قال أيمن بعد أن أخذ أنفاسه: عمي إدريس في حالة صعبة، يجب الذهاب إليه فورًا، هيا بنا لنذهب إلى البيت.

نهض فور أن سمع كلمات صديقه، قائلًا: كيف هذا، هيا.

كان أيمن صديقه الوحيد في قريته، يستأجر محلًا أمام مكتبة عم إدريس،

يبيع الأدوات المنزلية، وكان متزوجًا ويعيش حياة طبيعية، فمعظم أوقاته أما أن يقضيها في عمله أو مع يونس، أو في بيته.

اتجه مسرعًا ومعه أيمن، إلى بيت عم إدريس، يصعدوا إليه جريًا، ثم دخلوا غرفته، نظر له إدريس كأنه يفارق الحياة، فجلس بجانبه وقال: عمي إدريس، ماذا بك؟ سأستدعي طبيبًا فورًا.

وقبل أن ينهض يونس من جانبه، أمسك إدريس بيده، وقال بصوت منخفض:

يونس يا ولدي، قد حان وقتي لملاقاة ربي.

يونس: لا تقل هذا يا عمي، ستكون أفضل بإذن الله.

إدريس: فقط استمع لي، أريد أن أخبرك أمرًا.

يونس: ماذا يا عمي؟

وبصوت منخفض لا يسمعه أيمن، مال عم إدريس بجانب أذنه، وقال:

أي أمر تعرفه عني أو عن مكتبتي، لا تخبر به أحدًا، أي شيء يا بني.

تعجب وقال:

مثل ماذا يا عمي؟ عمي ..

فارق الحياة بعد كلمته الأخيرة، التي أثارت فضول يونس كثيرًا، وقد ناداه فلم يرد فبدأ في البكاء بجانبه، واحتضنه بشدة، فقد يونس أبًا حقيقيًا له، فإن كان والده على قيد الحياة حقًا لما فعل مثل ما فعل هذا الرجل معه

طوال حياته.

أقيم العزاء ليلًا، وكان يونس يقف حائرًا بين الناس، غير مصدق ما حدث، أدرك حينها أنه وحيد، لن يستأنس بأحد مجددًا، لم يبح لأحد بما يحلم به، لم يفعل كثيرًا من الأشياء دونه، حتى ذهب فجأة دون وداع، وحضر العزاء كل أهل القرية، ومن بينهم صديقه المقرب عم منتصر، الذي يصغر إدريس بسنة واحدة، كان لهم نفس ذكريات الطفولة الماضية، يعرف كل منهما سر الآخر، احتضنه يونس عندما رآه، وبكى كثيرا، كان عم منتصر له لحيه بيضاء كبيرة، وكان يرتدي جلبابًا، ومعه عصا لكبر سنه، كان أيضًا يشبه عم إدريس في بعض صفاته وشكله، وكان متعلما ومثقفًا لدرجة كبيرة، كان معروفًا بين أهل القرية، حتى انتهى العزاء، فاقترب منه عم منتصر يخفف عنه آلامه، حتى دعا الاثنان بالرحمة والمغفرة له، وذهب يونس إلى بيته وحيدًا.

مرت الأيام الأولى فكان يجلس دائما وحيدًا في منزله، فازدادت وحدته أكثر، لا يذهب إلى أي مكان، حتى أفاق شيئا فشيئا وبدأ النزول إلى المكتبة ثانيا، وطورها إكرامًا لعم إدريس، وبدأ الناس يأتون حتى اشتهرت المكتبة شهرة كبيرة، وبعد مرور ثمانية أشهر كان يجلس ليلًا في المكتبة، سارحا على كرسي مكتبه حتى تذكر شيئًا في رأسه، وقال بصوت مسموع:

المكتبة .. عمي إدريس!

أخبرني عمي إدريس قبل موته بشيء لم أعرفه، سر يخصه أو متعلق بمكتبته هذه، فما معنى هذا الحديث، لم أفهم، ماذا هنا من أسرار، ولماذا لم يخبر أحدًا به، وما الشيء المهم لهذه الدرجة حتى يخبئه.

قام واقفًا يبحث عن أي شيء، لا يعلم عما يبحث عنه، ربما يكون كنزًا أو شيئا هكذا، استمر ساعة يُقلب في الرفوف، داخل المكتب وخارجه، بعثر بعض الكتب في كل ركن من أركان المكتبة، ولم يظفر بشيء، حتى تعب واستند على المكتب الذي يتوسط المكتبة، وقال: وماذا بعد، ما أسرار عمي هذه، ما الشيء الغريب هنا، هذه مكتبة فقط، هل بها كتاب قيم أو شيء مثل هذا، أم توجد أموال هنا، ولكن إن كانت أموالا، فلِمَ بقي على حاله هذا، حقًّا غريب هذا الرجل، أريد أن أفهم ماذا هنا، قد أجن.

وقف ثانيًا، وبدأ ينظر إلى المكان جيدًا، ومشى خطوةً خطوة، وهو ينظر بين الكتب لعله يجد مفتاحًا أو زرًّا سرِّيًّا، وبدأ يبحث بين الكتب فوقها وتحتها، ويمينًا وشمالًا، استمر في البحث ساعةً كاملةً أخرى حتى غضب وقال:

من المؤكد هناك خطأ في شيءٍ ما، لم يقول لي عمي هذا الكلام إن لم يكن حقيقيًا؟ ماذا أفعل الآن، بحثت في كَل مكان في مكتبته، من المؤكد أن هنا شيئا لم أعرفه، لكن بحثت في كل ركن، أين هذا السر، ماذا أفعل ثانيا، تعبت كثيرًا، ما السر غير الكتب.

واتجه إلى المكتب الكبير، الذي كان يجلس عليه عم إدريس، وجلس على كرسيه، وقال بغضب:

كاد رأسي ينفجر من هذه المكتبة وكتبها، أريد أن أفهم، ماذا فعل هذا الرجل ليكن لديه أسرار، أريد أن أعرف.

أطاح بغضب بيده اليمنى في الهواء وضرب الكرسي بانفعال، ثم انقطعت

الكهرباء عن المكتبة وأغلق نورها، فوجئ يونس بما حدث، قام مسرعًا إلى باب المكتبة، وأدرك بأن المحلات المجاورة مضاءة بنورها، ثم نظر خلفه، حتى أضاء مربع صغيرًا في الأرض، فتحت عيناه في اندهاش كبير ثم أغلق باب المكتبة عليه وأسند ظهره إليه، وأمسك بكشاف كان معلقًا على الحائط بجانب الباب، وفتحه لينير أمامه، ثم بدا يمشي ببطء تجاه ذلك المربع، شعر بالإرتباك مما رأى ، يتبعه الخوف والقلق، مكتبة منغلقة، ممر سرى، حقًا مخيف، اتجه إليه ببطئ وحذر، كان طوله متر ونصف، وعرضه متر، ثم فتحَ له ممر سرى منحدر له إلى الأسفل، ثم سلم صغير، فأخذ يخطو نحو الممر، وسمى الله ونزل أول خطوات السلم، الأولى والثانية ثم الأخيرة، رأى غرفة صغيرة مربعة الشكل، تغطى بالأتربة، وشبكات العنكبوت في كل مكان، نظر إلى حائط الغرفة، رأى صورا لمماليك بالبراويز الذهبية، الجدران منقوشة باللون الذهبي، بأشكال غريبة لم يفهمها، لكن كانت الغرفة لها رائحة جميلة، وقف غيرَ مصدق، تعجب من هذا المكان، وماذا كان يفعل عمه هنا، ومن هؤلاء الملوك، وما علاقتهم بإدريس، ثم التفت برأسه نحو الجدران، حتى رأى صورة كانت تشبهه كثيرًا، ثم اقترب ونظر إليها، نعم إنه هو، هو في الملامح، والشعر المائل إلى الجانب، في عينيه الزرقاوين، في كل شيء، لكن نظرة الصورة ليست نظرته، كان ينظر كأنه يتحدث إلى شخص، أو إلى شعب.

وقال محدثًا الصورة، كأنها شخص أمامه: من أنت؟ أنت تشبهني كثيرًا، هل هذا أنا، من الممكن أن يكون عمي التقط صورة لي، ولكن لا، ليس هذا أنا، وما هذه الغرفة العجيبة، وكيف رائحتها جميلة هكذا.

حتى نظر ثانية في الغرفة، ثم رأى صندوقًا قديمًا مليئًا بالغبار، اتجه إليه وفتحه، حتى رأى كتابًا بنيا قديمًا، فأخذه وفتحه، كان هذا الكتاب مختلفا عن الكتب التي في المكتبة، أوراقه سميكة وثقيلة، واكتشف أنه مكتوب بخط اليد، وليس كتابًا كما توقع، وإنما مذكرات.

ثم قال متعجبًا من عم إدريس:

ماذا تفعل هذه الغرفة في مكتبته، وكيف أقام هذا الممر بهذه الطريقة؟ وما هذه الصورة التي تشبهني؟ ومن الملوك أصحاب البراويز الذهبية؟ وما سر هذه الغرفة؟ أم أن السر في هذه المذكرات؟ من المؤكد إنها في المذكرات.

أخذ المذكرات وخرج من غرفة المكتبة، واتجه إلى الكرسي وجلس عليه، ثم بيده اليمنى ضرب رأس الكرسي مرة أخرى، ليضيء النور ويغلق الممر، وأمامه المذكرات على المكتب كأنه يحدث شخصا ما وقال:

فضولي يراودني تجاهك، فأريد أن أعرف سرك الكبير.

ثم أخذ المذكرات وفتحها، كانت بلا عنوان.

***

جئت إلى مصر لأستولي عليها، وعلى كل شيء فيها، حقا إنها بلد جميلة، وها هو قصري وسط الوادي الرائع، كانت أولى سنواتي في مصر عظيمة، حتى اكتشفت هذا القصر الغريب الأطوار، والمدينة الأخرى! أتذكر أنني لم أكتب شيئًا عني في كتاب، ولكن هذه مذكراتي، ربما تكون مصدر سعادة لشخص يوما ما، أو مصدر تعاسة، لا أعلم، كان القصر لي حياتي الثانية،

لأني أول من اكتشف سر هذا القصر في غرفتي الكبيرة، حتى اكتشفت بعد سنوات بابًا أرضيًّا لغرفة ثانية، حتى نزلتها ورأيت غرفة أخرى، غرفة غريبة ذهبية لها باب ذهبي ملون بماء الذهب الخالص، لكن كان للغرفة لغز حتى يفتح هذا الباب.

(رجل من النسل، يأتي إلى مكانه، ويذهب إلى عنوانه بإرادته).

ثم توقفت كتابات الرجل عند هذا اللغز في مذكراته، تعجب يونس وقال:

ما هذا؟ ومن ذلك الرجل صاحب المذكرات؟ وعن أي مدينة يتحدث؟ وعن أي وادٍ؟ وما علاقه عمي بهذا؟ وماذا تفعل هذه المذكرات عنده؟ ما كل هذا الغموض الذي تركه لي عمي؟ وأين هذه الغرفة التي اكتشفها؟ ما هذا الهراء؟ وما ذلك اللغز؟

كانت هذه الأسئلة تراوده كثيرًا، رد فعل طبيعي لأى شخص ما، كان فضوله يزيد، يريد أن يعرف كل شيء عن المذكرات وصاحبها، وعم إدريس الذي ظهر له أنه رجل غريب لا يعرف عنه أي شيء، وما هذه المدينة التي يذكرها هذا الرجل؟ أين هي؟ وما سرها؟

قلب صفحات المذكرات لعله يأتي بأي شيء، آخر حتى وصل للصفحة الأخيرة وكان في نهايتها اسم.

(چارنيت ويلسلي).

وأغلق المذكرات، ثم خرج من المكتبة بعد إغلاقها، متعجبًا مما رأى

وشاهد بعينيه، وأخذ المذكرات معه، وذهب إلى بيته، مشتت الذهن، يريد أن يعرف كل شيء عن هذه المذكرات في الحال.

***

نعم نحن هكذا، يراودنا الفضول في كل المواقف، نريد الاكتشاف، نريد التغيير، نريد روح المغامرة، نريد التضحية، من أجل شيء لا نعلمه، نريد تغيير حياتنا المملة إلى شيء له معنى كبير، وهكذا كان في تفكيره، ذهب إلى البيت، وجلس على المقعد، وأمامه المذكرات، أخذ يفكر ويفكر، حتى فكر في حياته التي لا تعني شيئًا له، يريد أن يغيرها، يريد عالمًا جديدًا، لأن هذا العالم لا يناسبه، وتحديدًا بعد وفاة عمه الذي كان صديقًا وأبًا له، وقال بعد تفكير طويل:

بم أبدأ الآن؟ بالقصر الذي ذكره الرجل، أم بالوادي المجهول الذي لا أعرفه؟ وهذا الرجل (چارنيت ويلسلي) من هو، وماذا كان يفعل في مصر ليأتي إليها، من المؤكد إنه رجل ذو منصب عالٍ، ومنذ متى كان هنا، إذا كان رجلًا مهمًا سأعلم.

قام إلى غرفته، وأخذ جهاز الحاسوب، وجلس على المقعد، ثم فتحه وبحث عن (جارنيت ويلسلي)، فتحت عينه متعجبًا عندما بحث عن ذلك الاسم، وقال:

هذا غير معقول!

كان يُحكى عن چارنيت ويلسلي، إنه ملك بريطانيا، عندما احتلت

بريطانيا مصر منذ سنوات عديدة، وكان يعيش في وادٍ ريفيٍّ، لأنه يحب هدوء الطبيعة، ولديه قصر عظيم يُحكى عنه في جميع البلدان، وكان رجلًا ذكيًّا، وجاء إلى مصر لنهب خيراتها، إلخ.

لم يُذكر في الشبكة الدولية شيءٌ عن مذكرات له، أو سر أو غرفة أو بلد ثانية اكتشفها، وكانت نتائج البحث عنه عن الاحتلال والحديث العام الذي يعرفه كثير من الناس فقط، ثم ضحك أمام الحاسوب وقال:

ليس من المعقول أن هذا الملك هو صاحب المذكرات، ليس الأمر بهذه السهولة، لا أعلم أن عمي له علاقات قوية كذلك.

حتى توقف عن الضحك وقال:

إن لم يكن هو فمن يكون، ولماذا لم يكن من الأساس، حتى الحاسوب تذكر إنه كان يعيش في بلاد الأرياف، ولكن أين هذه البلد؟ هل هي بلدي التي أعيش فيها الآن؟ ولماذا يخبئ عمي هذه المذكرات؟ من الواضح إنها قديمة جدا، كذلك حبر قلمها، نعم من الممكن أن يكون هو هذا الرجل، آخر شيء متوقع هو دائمًا الصحيح، ولكن أين هذا القصر؟ هل في بلدي قصر ولا أعلم عنه شيئًا؟

جلس بعد تفكير طويل قد أرهق ذهنه، وأسند ظهره على مقعده، وينظر لسماء الغرفة، فأدرك إنه متعب ويجب أن يستريح حتى يفكر فيما يفعله غدًا، ثم أغلقت عيناه، ونام سريعًا.

في اليوم التالي، استيقظ مبكرًا رغم تعب رأسه من التفكير ليلًا، لم يُفْطِر

مثلما اعتاد مع عمه، فبدل ملابسه، ثم شرب فنجانا من القهوة لكي يعيد التفكير في هذا الأمر مجددًا، وخرج من بيته للذهاب إلى المكتبة، المكتبة غريبة الأطوار، التي لم يعلم سرها أحد غيره، ومضى إلى الطريق مشيًا حتى وصل إليها وفتح بابها، جلس على كرسي عم إدريس يفكر فيما يفعله أولًا، وبعد ساعة، دخل عليه صديقه أيمن، وقال:

يونس، كيف حالك يا صديقي؟ يونس!

يونس: بخير يا أيمن.

أيمن: ماذا بك يا أخي؟

يونس: لا شيء، كنت أفكر فقط.

أيمن: رحم الله عم إدريس يا صديقي، لا تفكر كثيرًا.

يونس: رحمه الله.

أيمن: حسنًا، أريدك أن تأتي معي ليلًا، نجلس معًا.

يونس: لا أريد.

أيمن: حسنًا كما تحب، كنت أريد فقط أن تغير مزاجك، فإذا غيرت رأيك أخبرني، أنا أجلس مع عم منتصر دائمًا.

يونس: عم منتصر!

أيمن: نعم، أحب هذا الرجل، واتعلم منه الكثير، فإذا أحببت فتعال معي.

تذكر أن عم منتصر صاحب عمه منذ القدم، وأنه يحكي له كل شيء، ومن الممكن أن يعرف شيئًا يخص هذه المذكرات أو صاحبها أو هذه الغرفة العجيبة، فمن المؤكد أن عمه أخبره عن هذا السر، نعم هذا احتمال وارد حدوثه، وقبل خروج أيمن من باب المكتبة ناداه يونس، وقال: أيمن.

أيمن: ماذا؟

يونس: حسنًا يا صديقي سأذهب معك إلى عم منتصر، كانت رأسي مشوشة قليلًا. وسنجلس معًا أنا وأنت وعم منتصر.

نظر أيمن إليه، بابتسامة على وجهه وقال: حسنًا يا صديقي اتفقنا، وسآتي إليك ليلًا لنذهب معًا.

ذهب أيمن، فظل جالسًا بمفرده، يفكر فيما يعرفه هذا الرجل من أسرار، يريد أن يأتي الليل مسرعًا ليعرف ما يعرفه، يمر الوقت ببطء شديد وهو منتظر.

***

يكون الليل أحيانًا مريحا لبعض الأشخاص، لكن لآخرين يكون مصدر تعاسة، فيا ويل الذي يستأنس بجرح مضى من الوقت، ولم يمض من القلب.

***

جاء الليل بعد نهار طويل، وجاء معه أيمن ليخبره بأن عم منتصر ينتظرهم، ذهب أيمن ومعه يونس بعد أن أغلق المكتبة، اتجهوا بخطواتهم في الليل بين الحقول، وسط الأراضي الزراعية المظلمة، حتى سأله:

أين تجلسان في هذا الليل؟

أيمن: في آخر الوادي، قريب من أرض زراعية كبيرة بجانب القصر المهجور.

يونس: نعم أعرفه.

أيمن: نجلس معًا أمام النار ونتحدث في كثير من الأمور، ونشرب القليل من الشاي في هذا الهدوء.

دقائق من الصمت حتى اقتربوا من آخر الوادي، وأشار أيمن إلى المكان الذي يجلسان فيه، فعرفه في الحال، ثم نظر نظرةً سريعة إلى القصر المهجور، كان عاليًا مظلما، لم يسكنه أحد منذ سنوات، حتى صار قصرًا مخيفًا لأهل القرية، ويصعب على أحد أن يقترب منه، من كثرة أقاويل الناس عنه، وصدور الأصوات منه ليلًا، لذلك لم يأتِ أحد بجانبه، اقتربا بخطواتهم إلى عم منتصر الذي كان ينتظرهم أمام النار المشتعلة وبجواره عصاه، تقدما إليه بدأ أيمن بالكلام قائلًا: عم منتصر، كيف أنت؟ جئت إليك ومعي يونس ليجلس معنا.

قال لهم بعد أن أشار بيده لكي يجلسوا بجانبه أمام النار المشتعلة: أهلا بكما، كيف حالك يا يونس؟

رد بحزن: الحمدلله بخير يا عمي.

أدرك عم منتصر أنه ما زال يفتقد أباه الذي رعاه من الصغر، قال له محاولًا التخفيف عنه:

رحم الله إدريسًا يا ولدي لا تحزن هكذا، نرجو جميعاً لقاء ربنا، فقد كان إدريس أخًا لي وصديقًا طيبًا، ثم ذهبت روحي معه عندما توفى، كانت تجمعنا صداقة منذ سنوات طويلة، وإن كان حيًّا فلن يحب أن يراك هكذا.

أيمن: نعم يا عمي منتصر، كان طيبًا يحب مساعدة كل الناس دون مقابل، لم يعد مثله هذه الأيام كثيرًا، كنت أجلس معه قليلًا، فكنت أحب حديثه جدًا.

كان في عالم آخر مليء بالتساؤلات، ولا يدرك أين هو الآن، كان يفكر كثيرًا في مذكرة الرجل التي حصل عليها، وأين يقع هذا القصر وفي أي بلدة، حتى نظر إليه عم منتصر وقال موجهًا كلامه إلى أيمن:

من الواضح أن يونس ليس معنا يا أيمن، قلبه يحمل حزنًا كبيرًا.

قاطع يونس أيمن قبل أن يتحدث وقال:

نعم ياعم منتصر كان أبًا عزيزًا لي، كنت آنس به في حياتي، لم أدرك حقًا أنني وحيد كذلك من بعد وفاته، كان أغلى من والديَّ اللذين لم أرهما، وفي آخر أيامه كنت قد حملت عنه إرهاق المكتبة.

عم منتصر : المكتبة !!

نظر عم منتصر له كأنه يعرف شيئًا، حتى طالت نظرته إليه، ثم تبادلا نظراتهما معًا كأنهما يدركان الشيء نفسه، ولكن يتحدثان عنه بلا كلام، قال عم منتصر أخيرًا:

هل بقيت في المكتبة مدة كبيرة؟

فهم مقصد كلامه وقال: نعم، شهورا عديدة.

دقائق من الصمت عليهم، نظر يونس إليه مجددًا، وظهر له أن هذا الرجل يعرف سر المكتبة، ثم حاول أن يغير مجرى الجديث، بعد أن أيقن أن عم منتصر يعرف شيئًا عن هذه المذكرات، هو أيضًا يريد أن يعرف كل شيء، وهو حله الوحيد ليشبع فضوله، قدم عم منتصر إليهم كوبين من الشاي، ثم قال يونس:

بلدتنا جميلة جدا، ربما تكون أجمل من البلاد المجاورة، كانوا يتحدثون عنها قديمًا بسبب هدوئها ومناخها المختلف، وعندما أتى الاحتلال إلى مصر كان ..

قاطعه عم منتصر وفهم كل مايدور في ذهنه، وفهم أن إدريس قاله له السر، السر الكبير، لم يكن صغير السن للتلاعب به، ثم نظرة إليه نظرة شديدة وقال:

أمتلك من العمر ستة وسبعين سنة، أتعرف ما معنى هذا؟

أدرك يونس إنه فهم ما يقصد بكلامه عن الوادي والمذكرات، فهو يعرف ما يقصده حقًا كل المعرفة، ليقول له: چارنيت ويلسلي.

استكمل الأخير بعد أن صمت يونس عندما سمع اسم صاحب المذكرات:

جارنيت ويلسلي كان ملك الإنجليز الذي لم يشفق على أحد، كان يعيش في هذا الوادي، كان يحب هدوء مناخه، ولكن لم يكن ذلك فقط السبب حتى

يبقى هنا، ولا يخرج من قصره هذا الذي يقع خلفك.

انفتحت عينه مندهشًا، وكان أيمن مشغولًا يتحدث مع زوجته، طوال حديث يونس مع عم منتصر، وبسرعة أدار رأسه إلى الخلف، ونظر حول الأرض التي كانت يتوسطها القصر المهجور، قال مسرعًا:

أين هو يا عمي؟

عم منتصر: القصر المهجور.

نظر غير مصدق إلى القصر المهجور، وراودته أفكاره، هذا هو قصر صاحب المذكرات، هل هذا الذي تحدث عنه والسر بداخله، إنه قريب جدًا ولم أره، ولم أتوقع ذلك، ثم قطع أفكاره عم منتصر قائلا:

أعلم بماذا تفكر الآن يا بني، وأعلم أيضًا أنك عرفت سر مكتبة إدريس.

رد في تعجب: أعلم أنك فهمتني من اللحظة الأولى، وأيضًا أعرف من نظراتك أنك تعرف كل شيء، أدرك أنك رجل كبير السن وستفهمني بسهولة، ولكني أريد معرفة كل شيء عن هذه المذكرات وغرفة الملك، وما بهذه الغرفة لكي يكتب عنها مذكرات، حقًا فضولي يقتلني تجاهها.

قاطع أيمن الحديث قائلا: معذرة، يجب عليا الذهاب فورًا إلى بيتي، هناك خطب ما عند زوجتي.

عم منتصر: خير يا أيمن إن شاء الله.

يونس: أتريد شيئًا يا صديقي؟ هل آتي معك؟

أيمن: سلام يا يونس لا داعي لذلك، سأذهب وربما آتي مرة أخرى.

يونس: حسنًا يا أيمن، انتبه لنفسك.

غادر أيمن وبقي الاثنان حول النار المشتعلة، وكل منهما يريد المعرفة أكثر، صمت عم منتصر لدقائق وهو يشعل النيران أكثر، فقال يونس:

أخبرني الآن يا عمي منتصر، أريد معرفة هذه القصة.

عم منتصر: حسنًا استمع لي جيدًا يا بني.

قد دخل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢ ، فاحتلوها ٧٤ عامًا، وأخذوا كل خيراتها ومواردها، وكان ملكهم طاغيًا لا رحمة في قبله، كان اسمه چارنيت ويلسلي، وهو صاحب هذه المذكرات وهذا القصر الذي خلفك، أخذ هذا القصر من رجل مصري كان منصبه عاليًا، كان القصر جميلا جدا منذ القدم، لذلك أخذه منه بالقوة، وبعد ذلك لاحظ العديد من سكان القرية أنه يجلس فيه كثيرا، ويخرج فقط في المسائل المهمة، فعُرف بين الناس حبه الرهيب لغرفته، من حديث خدم القصر، ولكن لا أحد يعرف السبب، وبعد ٧٤ عاما اضطر أن يرحل عن مصر، وكتب هذه المذكرات، وفي هذا الوقت من شدة كره الناس الإنجليز هجموا على قصره وخرَّبوه، فصار كما ترى، ولكنَّ شخصًا واحدًا دخل غرفته في أثناء هجوم أهل القرية وأخذ هذه المذكرات، كان يسمى عمر أفندي.

قال بتعجب:

ومن عمر أفندي وما علاقته بعمي إدريس ليأخذ المذكرات.

قال عم منتصر: إدريس عمر.

يونس: والده!

عم منتصر: نعم والده.

وبعد أن أخذ عمر أفندي هذه المذكرات توفي بعدها، ولم يكتشف أي شيء أو يصل إلى سر المدينة الأخرى، ثم أكمل إدريس هذه المسيرة وحاول مرارا وتكرارا أن يكتشف أسرار هذه الغرفة ولم يفلح، وحاول أن يدخل غرفة ذلك القصر ولكن كان دائما يقف عند حل اللغز، حتى يئس من المحاولات.

رجل من النسل، يأتي إلى مكانه، ويذهب إلى عنوانه بإرادته!!!

ذلك اللغز الذي يقف عنده كل مرة أمام الباب، المذكور أيضًا في هذه المذكرات، حاولنا بكل الطرق فتح هذا الباب ولكن لم نفلح.

قال يونس:

يجب أن نحل هذا اللغز بأي طريقة، ماذا خلف هذا الباب؟ ومن الذي من النسل؟ هل يقصد أحدًا؟ بمعنى أن يكون فردًا من عائلته أم ماذا؟ وأين العنوان والمكان المذكور، وكيف يذهب بإرادته؟

دب الصمت، عليهم يحاولوا أن يحلوا اللغز، تفكير كثير ودقائق تمر، لكن الحال كما هو، قد غلبه النعاس وتعب جسده مما مر به في الأيام الماضية، وأخذه عم منتصر لبيته، فنام حتى صباح غد.

***

استيقظ في اليوم التالي في آخر النهار، وأدرك إنه في بيت عم منتصر، وأنه غلبه النوم ليلا دون وعي، أفاق من نومه ويجلس على كرسي، يفكر كثيرًا فيما يفعله ليحل هذا اللغز، مرت ساعات عليه وهو جالس يفكر، حتى دخل عليه عم منتصر يقول: كفى نومًا يا بني.

قال يونس له: سأدخل البيت هذه الليلة.

عم منتصر: أي بيت يا بني.

يونس: البيت المهجور.

عم منتصر: هل حللت اللغز.

يونس: لا لم أحله، ولكن لا أحب جلوسي هكذا، يجب أن أدخل ومن الممكن أن يدلني على شيء عن هذا اللغز، من المؤكد ذلك.

صمت عم منتصر هنيهة ثم استكمل:

حياتي لم تعد تعجبني أريد تغييرها، أريد فعل شيء حقًّا، لا أعرف ما هو ولكن أريد، يومي يتكرر كل يوم ولا جديد، حتى وقعت هذه المذكرات بيدي، وثار فضولي وشغفي تجاهها، لذلك سأحاول قدر الإمكان أن أحل هذا اللغز، وأستكمل ما لم يستكمله عمي إدريس.

قال عم منتصر بعدما استمع إلى حديث يونس: أعلم يا بني ما بداخلك جيدًا، كنت حقًّا أريد ما تريده، ولكن فات الأوان ومرَّ العمر في لحظات، حسنًا يا بني، حاول ومن الممكن أن يكون حظك أفضل من حظنا.

مرت ساعات قليلة، وجلس عم منتصر ليلًا أمام النيران المشتعلة مجددًا، ثم أتى وجلس معه، وشرب كوبًا من الشاي، وبعد مدة قصيرة، قال: أنا جاهز.

ابتسم عم منتصر قائلًا: حسنًا يا بني اذهب، ربما تأتي بشيء جديد من هذه الغرفة.

ابتسم له يونس ثم احتضنه، وذهب تاركا إياه، واتجه نحو البيت المهجور ليلًا، وكان أهل القرية نائمين، ثم دخل من البوابة الحديدية التي كانت مفتوحة قليلًا، فتحها أكثر ودخل دون النظر خلفه، ثم أنار الكشاف ليرى خيوط العنكبوت في كل مكان، دخل القصر الذي كان مليئًا بالأتربة، نظر حوله بكشافه فرأى سلمًا للصعود، فعلم أنه سيأخذه إلى غرفة الملك، واتجه إلى السلم وصعد درجاته حتى وصل غرفة الملك المذكورة في المذكرة ودخلها، كانت كبيرة حقًا، ومليئةً ببعض الأغراض غير المهمة، وكثير من الأشياء المبعثرة أرضا، كان ينير الأرض بالكشاف حتى رأى بابا خشبيًا شبيها للباب الذي في مكتبة عم إدريس، ثم حاول أن يبعد كل شيء حول الباب ليفتحه، دقائق معدودة حاول أن يفتحه ولم يفلح، ثم نظر حوله باحثا عن أي شيء صلب، ثم أخذ حديدة صلبة قوية، ضرب بها على الباب الخشبي ففُتح فورًا وكَسر القفل، أزاح الأخشاب وأنار بكشافه، نظر إلى درجات سلم نازلة تؤدي إلى غرفة، وسمى الله ونزل درجاته بحذر، ثم سقط منه كشافه أسفل الغرفة، فاستكمل نزوله ثم أخذه بيده مجددًا، نظر جيدا بالكشاف، كانت غرفة واسعة، وجدرانها تدل على أنه كان عليها براويز أُخِذَت، فأدرك سريعًا

إنه عم إدريس عندما نظر إلى غرفته في مكتبته، ورأى تلك الصور الغريبة الذهبية، وعندما نظر جيدًا، وجد بابًا فولازيًا صلبًا ملون أيضًا باللون الذهبي كما رأى أيضًا البراويز التي كانت باللون نفسه فتعجب، بدأ يقترب من الباب بنوره المضاء، وعندما اقترب منه، انغلق عليه الباب فجأة من الأعلى بصوت مرعب، حاول الصعود إلى الأعلى باستخدام السلم ولكن لم يجد نفعًا، حاول مرارًا وتكرارا وكأن الباب لم يعد موجودا، أدرك إنه علق في هذه الغرفة، ونزل مجددًا ووقف في نصفها، قائلا في تعجب:

هل سجنت هنا في هذه الغرفة، ولماذا عمي لم يغلق عليه هذا الباب مثلي، عجبًا لهذا، وتبًا لهذه الغرفة العجيبة.

وقف مكانه عدة دقائق لعل شيئا يحدث، لكن الحال كما هو لم يحدث أي تغير، صرخ بصوت عال لعل أحدًا يسمعه وحاول مجددا فتح الباب، لكن أيضًا بلا جدوى، نظر في الغرفة جيدا كل مكان لم يجد أي دليل على أي شيء، حاول أيضًا فتح الباب الحديدي ولم يستطع، ثم ضربه برجله ولم يحدث شيء، مرت الساعة الأولى عليه بصعوبة، ثم سمع أصوات أرجل فوقه، ثم قال بصوت عال: من هناك؟

قال عم منتصر بعد أن مرت الساعة عليه ولم يعد يونس: أنا منتصر يا ولدي، ماذا حدث لك؟

قال يونس: عم منتصر، قد انغلق الباب ولم أعرف كيف أفتحه.

عم منتصر: لا علامات لهذا الباب، أين هو؟

يونس: كيف يا عمي، كان هنا مكانك.

عم منتصر: يونس لا شيء يا بني، كيف اختفى؟ هذا أمر غريب.

يونس: عجبًا لهذا، لقد سجنت في هذه الغرفة.

عم منتصر: كيف يحدث هذا معك، حاول إدريس النزول عدة مرات ولم يغلق هذا الباب عليه، من المؤكد أنك فعلت شيئا له علاقة باللغز.

يونس: لم أفعل شيئا، نزلت فقط إلى الغرفة.

عم منتصر: لم يعد أمامك سوى التفكير في حل اللغز، فكر يا ولدي، فكر جيدًا.

أدرك عم منتصر أنه علق في هذه الغرفة، فحاول أن يكرر هذا اللغز، ليساعده في حله، كان يونس جالسًا مسند ظهره على جدار الغرفة، يفكر في حل اللغز، مرت ساعة أخرى عليهما ولم يصلا لشيء، مر على يونس يوم كامل في تلك الغرفة، فكان الحل الوحيد أن يفكر أكثر في كل تفاصيل المذكرات حتى عاد عم منتصر قائلا: يونس أنا مازلت هنا يا بني، حاول حل هذا اللغز.

يونس: رجل من النسل، يأتي إلى مكانه.

عم منتصر: فكر يابنى، سنجد حلًا باذن الله، لم تعد ملامح لهذا القفل.

يونس: ويذهب إلى عنوانه!

وقف فجأة من مكانه ويقول:

إذن لم يكن عمي من هذا النسل المذكور، فلم يغلق عليه هذا الباب، هذا يعني أنني من هذا النسل، وإذا كان من النسل فسيغلق عليه الباب كما هو الحال معي.

تعجب مما قاله محدثًا نفسه، ثم أكمل قائلا:

كيف أنا من هذا النسل؟ كيف؟!

حسنًا، سنعرف هذا لاحقًا، إنني من النسل الآن وماذا بعد، ذهبت إلى مكاني، أين هو تحديدًا، من الممكن أن يكون هذه الغرفة، نعم لا شيء سواها، واذهب إلى عنواني بإرادتي، إلى أين أيضًا، كيف بإرادته لم أفهم، كيف اذهب بإرادتي.

نظر إلى الباب الفولازي مجددًا، ثم اقترب منه أكثر وقد لاحظ عليه علامات منقوشه لم يفهمها، وكرر مجددًا:

رجل من النسل، يأتي إلى مكانه، ويذهب إلى عنوانه، بإرادته.

ثم صاح قائلا: بإرادتي!

وقف مستقيما أمام الباب وأنار الكشاف الذي كانت بطاريته على وشك الانتهاء، وركز النور على الباب مجددًا، حتى رأى علامة يد، نعم يد، كأنها بصمة يد، فهي المحاولة الأخيرة لحل اللغز.

بسم الله الرحمن الرحِيم، قالها ومد يده اليمنى على الباب، كأنه يفتحه بيده، حتى فتح الباب.

***

كان شعاع من النور أمامه بعد أن فتح الباب مسرعًا، لم يرَ شيئا من شدة نوره، حتى سُحِب جسدُه إليه دون ادراك، وصار بين الهواء معلقًا، حتى غاب عن وعيه لحظات، لحظات من فقدان وعيه حتى أفاق من غيبوبته سريعًا، كأنه لم يدرك شيئا مما حل به، ونظر إلى المكان حوله لم يرَ سواء صحراء وبعض الأشجار القليلة، ثم وقف فجأة وتلفت حوله جيدًا، أدرك إنه الوحيد في هذا المكان، ولا شيء سواه، أمسك برمال الأرض ليحاول أن يفهم أنه لم يكن حلمًا، قال بتعجب شديد:

هل هذا حلم، ماذا حدث لي، وأين أنا وما هذه الصحراء، هل هكذا كان حل اللغز، لم أفهم شيئًا.

كانت هناك كثير من الأسئلة تراوغه، ولم تكن لها إجابة، وكان يريد أي شخص يسأله عن هذا المكان لكن لا أحد، ونظر خلفه وفوقه إلى السماء، ثم أدرك أنه لا أثر إلى الغرفة التي كان بها، الغرفة الملعونة، تقدم بخطواتٍ وكان يحاول العثور على أي شيء، أو أي حياة هنا، وكان الليل قد حل عليه ولا يرى أي شيء، حتى تعب وجلس على صخرة صغيرة وهم بالنوم عليها حتى الصباح.

فى الصباح بعد أن طلت الشمس بضوئها، استيقظ على صوت عال فجأة، حتى صار واقفا منتبهًا ينظر حوله ولا يرى شيئا، فتعجب من أين يأتي هذا الصوت، اتجه يمشيً حتى رأى دائرة صغيرة بلا ملامح، فهم بالمشي متجهًا إليها، مر من الوقت الكثير وهو متجه نحو الدائرة أمامه، التي كان يظنها

قريبةً منه، ولكنها كانت بعيدة جدًا، اقترب إليها أكثر وأكثر، وكلما اقترب منها زاد حجمها وكبرها، كبرت أكثر وأكثر حتى وصل إلى قمتها، وقف ينظر بداخلها، فتحت عيناه مما رآه ليفاجأ، بأنها ليست دائرة فقط، وإنما مدينة كبيرة على شكل دائرة، كان النظر إليها رهبةً وخوفًا لإنسان طبيعي، نظر إلى هذه المدينة التي كان في منتصفها شجرة كبيرة تصل السماء بفروعها، وقف مندهشا منها غير مصدق، ثم انتبه إلى بعض الناس الذين كانوا يقفون أمامها ومن حولها يعبدونها، حاول معرفة ماذا يفعل هؤلاء البشر أمام هذه الشجرة، تفاجأ مجددًا، هؤلاء ليسوا بشرًا كما نعرف، رأى أجسادهم غريبة وقوية، ولا يقل طول أحدهم عن المترين، كان بعضهم يمسكون بدروعهم وسيوفهم، والآخرين كان يحملون أشياء ثقيلة عن الإنسان الطبيعي، حتى الفتيات منهم كذلك، جذب انتباهه أكثر أنه وجد قليلا من البشر الطبيعين، نظر أيضًا إلى بعضهم الذين كانوا يحملون أثقالا غير قادرين عليها، ثم ضرب أحد الجنود طوال القامة أحدهم من الخلف بقوة، تعجب يونس من فعلهم هذا، ونظر بجانبه حتى رأى سلما حلزونيا يمكنه من دخول هذه المدينة، وقبل نزوله نظر خلفه مجددًا، رأى الصحراء الفارغة أمامه، أدرك إنه مجبر على دخول المدينة، بدأ بالنزول على السلم، واتضح إنه سلم طويل المدى لكبر حجم المدينة، حتى نزل داخل المدينة بين الناس، الذين نظروا إليه فور دخوله بتعجب وغرابة، اتجه سيرًا بخطواته نحو هذه الشجره ليعلم ماذا يعبدون، وكان ذلك أول ما أثار فضوله، ثم نظر حوله وهو يسير، شاهد عددا من الناس الجرحى على الأرض، دون أن يساعدهم أحد، وقف أمامهم غير مصدق هذا المنظر، ثم أتى عدد من الجنود بوحشية وقتلوهم في الحال،

اندهش من فعل الجنود، كيف فعلوا هذا، وهم مصابون وجرحى ولم يكن لديهم أي وسيلة للدفاع عن أنفسهم، استكمل السير متعجبًا وتسرب الخوف بداخله من هذه المدينة، وكيف جاء إلى هنا، وأين هو الآن، ليفاجأ أيضًا من الجندي الذي أخذ فتاة قسرا من أخيها الصغير، وهو يضحك بصوت عالٍ، اقترب أكثر من الشجرة حتى وقف خلف البشر الطوال القامة وهم يعبدونها، كأنها ملك يقف أمامهم، وعندما نظر من بين البشر إلى الشجرة، كانت هناك صورة ليست واضحة أمامه، دخل بينهم لينظر إليها، ثم اقترب أكثر حتى رآها بوضوح، ثم وقف بينهم مصدومًا مما راه، وقال بصوت عالٍ:

كيف هذا؟ هذه صورتي التي كانت معلقةً في غرفة مكتبة عمي.

سكوت تام بين البشر، والتفت أحدهم إلى الخلف ينظر إليه، ثم بقيتهم وبأجسامهم الغريبة اقتربوا منه وشكلوا دائرة من حوله، كانوا يطالعونه بشدة واستغراب، كانوا مصدومين من يونس لأنه لا يشبههم في شيء، أدرك في هذا الموقف إنه سيموت لا محالة، لا صوت لا كلام، خاف كثيرا، ثم قال مجددًا:

هذه صورتي المنحوتة على الشجرة، ماذا تفعلون أمامها، لم أعد أفهم شيئا، من أنتم؟

تقدم رجل ضخم البنية والعضلات من المنتصف إليه، كان واضحًا إنه أكثرهم قوة، أو ربما يكون قائدهم، ونظر إليه في صمت، وقال أخيرًا بتعجب:

الملك!

***

لم ينتظروا رده، فرفعوه على أكتافهم في الحال، يسيرون به في شوارع المدينة يهتفون به، عاد الملك، عاد الملك، ويونس لم يفهم شيئًا مما يفعلونه، أي ملك هذا؟ ومتى كان ملكًا، اتجهوا به إلى قصر الملك، الذي كان عالي البنيان ذهبي اللون، فكر قليلًا في البراويز الملونه بنفس اللون، وشاهد القصر الضخم في تعجب واندهاش، وأن هذه المرة الأولى الذي يشاهد فيها قصرًا هكذا، ثم أدخلوه من بوابته الكبيرة، خرج كل من في القصر مسرعًا إليه في استقباله، كأن هذا موعد رجوعه من حيث لا يعرف، وقف الخدم والخادمات أمامه في احترام، وعدد من الناس، ثم دخلوا به إلى ساحة القصر يجلسونه على عرشه الذي لا يدرك عنه شيئا، وجلس أمامهم مصدمًا مما حدث، ثم وقفوا أمامه منحنين له، وأتى أحد المساعدين بجانبه، وكان في الخامسة والسبعين عاما، وكان يدعى القاسم، ثم قال إليه:

مرحبا بك أيها الملك بيننا، كنا ننتظر قدومك منذ زمن، وها قد أتيت لعرشك وملكك، وأخبرنا الملك چارنيت أنك ستأتي يوما ما، فنحن سعداء الآن.

تعجب من سماع اسم الملك چارنيت ويقول:

الملك چارنيت !

قال القاسم مجددًا:

نعم أيها الملك، أنك تشبه كثيرًا في ملامحه وجسده وعينه.

ابتسم يونس ابتسامة تدل إنه يعلم ذلك الأمر لكي يعرف الحقيقة كاملة، أدرك في ذلك اللحين وأمامه هؤلاء الناس الواقفون أمامه في احترام وتقدير، وكانوا ينتظروا كلمة منه ليفهم يونس ذلك في الحال، فكر كثيرًا فيما يقوله لهم، ولكن أدرك شيئا مهمًا، إنه يتقن دور الملك حتى إنه يعرف كيف أصبح ملكًا، وقف أمامهم في ثبات وشكرهم جميعًا وجلس مرة أخرى على عرشه، انصرف جميع البشر من أمامه بعد أن حيَّوه، قام من عرشه الذي لا يعلم عنه شيئا، وبات الأمر غريبا عليه، ثم أتى أحد الخدم ليُوصله إلى غرفته، حتى دخل إليها، يالها من غرفة كبيرة، غرفة ملك حقا، كان كل شيء فيها من ماء الذهب، الجدران، البراويز، كل شيء، تجول في الغرفة، ثم وقف عند برواز أمامه ونظر جيدا، فرأى نفس الصورة في غرفة مكتبة عمه إدريس التي تشبه كثيرًا، قال متعجبًا:

من الواضح إنه ليس لغزًا واحدًا، كيف أتت هذه الصورة إلى هنا، ومن هذا تحديدًا، أعرف جيدًا إنه ليس أنا، ولكن إن لم أكون أنا فمن يا ترى، ومن الواضح أيضًا أنهم يعرفون الملك چارنيت ويلسلي، ولكن ما الذي كان يفعله في هذه المدينة، هناك لغز أكبر، ما الرابط الذي يجمع بين عمي إدريس ووالده عمر أفندي والملك چارنيت، وأين هذه المدينة في عالمنا، ساجن حقًا أريد حل كل هذه التساؤلات.

قد ملأ التفكير رأسه كثيرًا، ولا جواب، كاد أن يصرخ حتى يفهم كل شيء، ولكن لم يفهم هؤلاء البشر ما يمر به، تقدم خطوات قليلة أخرى حتى رأى برواز آخر، ووقف أمامه، كانت صورة رجل وامرأة، صورة تقليدية،

كان الرجل في زيه يبدو عليه الثراء مثل الملوك، ولكن هذه المرأة لم تبد سعيدة بل أقل من مستواه، ثم قال: ومن هذا وهذه يا ترى؟

***

كانت حياته مملة ولا شغف اتجاه أي شيء، كانت حياته أشبه بالتراب الذي يسير مع اتجاه الرياح دون إرادة، والآن تغيرت الأحوال، فالدنيا تأخذك من مصير إلى مصير آخر، من عالم إلى عالم آخر في لحظة، ولا تدري كيف أو متى، فكن مستعدًا لكل شيء في أي وقت كان.

***

وبعد تفكير طويل في المدينة وسكانها، زاد إرهاق بدنه وتعب، اتجه نحو السرير الملكي وجلس عليه فنام سريعًا دون إدراك.

***

من ناحية أخرى كان القاسم في غرفته متعصبًا، ومعه المساعد الآخر (توفان) -وذلك الاسم يعنى أول قطرات المطر- كان توفان يجلس على كرسي هادئًا، وكان القاسم واقفا يأتى ويذهب أمامه وعلى وجهه الغضب، ليقول القاسم بعصبيته:

كيف، كيف هذا؟

رد عليه توفان بهدوء: اهدأ حتى نفكر في مصيره.

استكمل القاسم بعصبية: لا أعلم كيف أتى إلى هنا بعد هذه السنين

الطويلة.

قال توفان: حقًا أمر غريب.

ثم قال القاسم: كان المُلك كله لنا، نتحكم في كل شيء، نأخذ كل الذهب لنا، كانوا تحت سيطرتنا، والآن كل الجيش والشعب فرح بعودته، ماذا أفعل؟

قال توفان بهدوء: لا أعتقد أن كل الجيش سيكون تحت سيطرته، فهناك فئة تحب الذهب كثيرًا.

رد القاسم: أريد قتله الآن.

وقف توفان أمامه قائلًا: لَمْ يعد مناسبا الآن، ماذا سنقول لأهل المدينة والقادة الجيش بعد أن رأوا الملك؟

اقترب منه القاسم وقال بعصبية: لِمَ أنت هادئ هكذا، هل يعجبك الأمر؟!

اقترب توفان منه قائلًا: لم يعجبني ولكن تعلمت استخدام عقلي جيدًا.

كان القاسم شخصا عصبيا ومتهورا ومتسرعا في بعض الأمور، عكس والديه اللذين ماتا من الفقر والجوع، كانوا فقراء قديما ولم يحن الملك إليهم يوما، كل هذا في ذاكرته ولم ينسَ القاسم يوما ما حدث لأبيه أو أمه واحتفظ بغضبه منا لمملكة والملك في استرداد حقه وحقه والديه حتى انتقل إلى القصر في شبابه، قد اختاره أحد المساعدين قديما، لقوته في الحرب، وظل معه وظل يحتفظ بالكراهية في نفسه حتى قابل توفان وصارت بينهما علاقة صداقة قوية، كان توفان أذكى وأكثر حذرًا من القاسم، وكان دائما حكيما في أموره

وأفعاله عكس القاسم تماما، حتى ذهب الملك واستولوا على ما في المملكة من ذهب وقوة ونفوذ، كان الاثنان يفعلان ما يحلو لهما وكانا يتحكمان في الجيش وقادته حتى جاء يونس.

انتهى الحديث بينهما بعد جدل كبير فيما يفعلانه لذلك الفتى، حتى قرر الاثنان معًا أخيرًا إنه يجب التخلص من ذلك الفتى اللعين، ليستولوا على المملكة مرة أخرى.

***

أنت الملك. عاش الملك.

سيوف ودروع في كل مكان.

موتى ينغرز في قلوبهم السيوف.

الكوخ يا يونس.

أعدائك.

فتح عينيه والتقط أنفاسه بصعوبة، وأدرك أنه ما زال في الغرفة الملكية، وقال:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما هذا الكابوس، ومن هؤلاء الذين رأيتهم.

ثم قام نحو نافذه الغرفة وفتحها، كانت الطيور تطير نحو القصر في منظر منتظم وجذاب، وكانت الأشجار في كل مكان في القصر، نظر بعيدًا إلى

الناس، يأتون ويذهبون ويشترون احتيجاتهم، وبعضهم يتحدث إلى الآخر، وبعض الناس نائمين أرضًا، وأم حاملة لطفليها تمشي باكية، لم يفهم لماذا يتعامل الجنود مع الناس بهذه الوحشية، ولكن أدرك بنظره أنها مدينة جميلة في شكلها، وقال:

لم أصدق هذا الكابوس يأتي من هذه المدينة الجميلة هذه، ولكن ماذا أفعل الآن، إنني الملك ولا أعرف كيف، أريد معرفة كل شيء وكيف جئت إلى هنا، وكيف صرت ملكًا بين هؤلاء البشر، لا شيء سوى ممارسة دور الملك بينهم حتى لا يعرفوا شيئا، سأحاول فعل هذا حتى لا يشك بي أحد، وإن لم أكن ملكًا مؤخرًا سأكون الآن، انقطع فكره بصوت معدته التي كانت على وشك الانهيار، وأدرك أنه لم يأكل شيئا منذ أن كان في غرفة القصر المهجور، ليقول: إني جائع.

سمع طرقات باب غرفته من قبل أحدهم، فقال: تفضل.

كان لدخوله هيبه كبيرة تدل على إنه في منصب كبير، كان رجل كبير السن يقف أمامه وألقى التحية منحنيًا له، وقال: مولاي الملك، هل تأمرني بشيء؟

فكر يونس قبل الرد عليه أن يتحدث مثلهم بلغتهم العربية الفصحى، وتذكر أنه كان يكتب روايته بهذه الطريقة، وقال أخيرًا: من أنت.

رد عليه قائلًا: أنا كبير الخدم يا مولاي، أدعى (أبيل) -وتعنى الشخص الجميل-، كنت بجوار الملك چارنيت دائمًا، احتفظ بسره وأرعاه.

رد عليه وقال: حسنا يا أبيل، أنا الآن جائع.

تحسس بطنه أمامه، فأدرك كبير الخدم أنه يجب أن يحضر له الطعام مسرعا، قائلا: حسنا يا مولاي، سآتيك بالطعام في لحظات.

ذهب أبيل بعد أن حيا الملك مرة أخرى، وانصرف يحضر له الطعام، تعجب من احترام الرجل الزائد له، ونظر إلى النافذه مرة أخرى، مرت لحظات وأتى الطعام أمامه، كان طعامًا فاخرًا من لحم الغزلان وعديد من الأصناف الأخرى، جلس أمام المائدة وأكل أكثر من نصفها بمفرده حتى شعر بالطاقة مرة أخرى.

***

من ناحية أخرى كان أبيل كبير الخدم رجل محبًا للمملكة، رغم كل أفعال الجنود التي لم يرضَ بها، وبما يفعله القاسم وتوفان في المدينة، كان في الثمانين من عمره، كان كتومًا يحتفظ بأسرار الآخرين ليكون ثقةً بين الناس، ويعمل في القصر منذ القدم ليثبت إخلاصه وحبه للمملكة، حتى صار كبير الخدم، كان جالس ينتظر الملك فى غرفته حتى ينتهي من طعامه، كان يفكر، هل يعرف هذا الملك أسرار الملك چارنيت وكيف كان قويا؟ حقا يعلم لأنه وريثه، وهل يعرف المدينة؟ وماذا نفعل؟ من المؤكد أن أخبره الملك چارنيت، لكن لا، كان مصدوما ومندهشا بما حوله كأنه لا يعرف شيئا، وهل يعلم بسر الس...، انقطع تفكير أبيل بطرقات من أحد الخدم، وكان يبلغه أن الملك انتهى من طعامه.

جلس يونس على كرسي الغرفة بعد أن انتهى من طعامه، وقرر بعد تفكير طويل أن يتقن دور الملك بين هؤلاء حتى يعرف حقيقة المدينة ولماذا هو هنا،

وقرر أيضًا أن ينزل بنفسه وسط المدينة حتى يفهم كل شيء عنها، وأيقن أنه لا ينبغي أن يثق في أحد هنا بعد أن رأى هذا الظلم بين الجنود والناس، تنكر في ملابس لا تدل على أنه ملك، واستعد للنزول، حتى دخل عليه أبيل قائلا:

مولاي ماذا تفعل؟

تحولت شخصيته من إنسان بسيط يعيش في وسط الريف إلى شخص صاحب قرار وعلى علم بما يفعله، وقال له: سأنزل وسط المدينة.

قال أبيل متعجبًا: حقا هكذا، مولاي يلزمك بعض الحرس.

يونس: لا داعى سآنزل هكذا.

أدرك أبيل إنه مصمم على هذا، وقال: أمرك يا مولاي.

انتهى من ارتداء ملابسه، وأخذ معه غطاءً للوجه حتى يكون متخفيا بين الناس الذين لا يعرف عنهم شيئا، خرج من باب القصر وكان بعض الخدم ينظرون إليه بتعجب، فكيف لملك مدينة متوج، قائد جيش كبير يخرج كأنه فرد من أفراد المدينة، ولا حرس له، مضى إلى طريقه متخفيا عن الناس وسط سوق كبير، ينظر إلى هذا وهذا دون أن يتعرف عليه أحد، حتى الجنود كانوا ينظرون له بتعجب قليلا لقصر طوله الذي لا يتناسب معهم مثل بقيه الناس، حتى توقف عند بعض الناس المجتمعين أمام بيت أحد الأشخاص، وكان أمام البيت رجل طويل القامة يقول إنه أخذ هذا البيت من عُبيدة قصرًا، ولا يجرؤ أحد على مواجهته، نظر يونس إلى شاب الذي تقدم أمام الرجل، قائلا: هذا منزلي، ليس لك حق أن تأخذه، هذا تذكار من أبي لي،

سمع الرجل كلامه فدفعه إلى الخلف بيده، فسقط على الأرض أمام الناس، انتظر لحظات لعل أحد يساعده ولكن كانوا يضحكون، نعم يضحكون عليه، انصدم من رد فعلهم كثيرًا، وغضب فورًا، وقرر مساعدة هذا الشاب الذي يدعى عُبيدة، دخل وسط الجميع ومد إليه يده، ثم مد الآخر يده وهم بالوقوف، وقال أحد الواقفين من ضمن الضاحكين إنك شجاع أيها الفتى، وتركوه وذهبوا ضاحكين.

قال له عبيدة بحزن: شكرا لك يا فتى على مساعدتك.

وقبل ذهاب ذلك الشاب، قال له: انتظر، أين تذهب؟

قال الشاب: لم نتحدث هنا اذهب معي.

أخذه عُبيدة إلى مكان على أطراف المدينة، وسط حقول وأراضٍ زراعية، وجلس معه، حتى سأله مرة أخرى عن منزله وما قصة هذا الرجل الذي أخذ منه بيته، وأثار فضوله أيضا ليعرف لماذا لا يتحدث بينهم.

قال عُبيدة: كنت أعيش أنا ووالدي في منزلنا هذا، وكنت أعمل في هذه الأرض، وطاردت بعض الديون أبي بسبب المال الذي يدفعه إلى الملك، وأيضا أهل المدينة جميعًا يفعلون نفس الأمر، وقال هذا لحمايته مدينتنا فلم نقل شيئا، حتى تراكمت هذه الديون علينا كثيرا وتوفي أبي منذ أيام، ومنذ وقتها لم أعرف كيف أسدد الديون، حتى جاء هذا الرجل تابع الملك وفعل ما فعل كما رأيت تماما.

صمت يونس لتأثره وحزنه عليه، فإنه شاب صغير السن، لم يمتلك شيئًا،

لا منزل له ولا مأوى، حتى أهله غير موجودين، تذكر إنه ملك، نعم ملك هذه المدينة، قرر يونس الذهاب فجأة، وكان عُبيدة يريد أن يعرف قصته، ثم وعده أن سيقابله مرة أخرى قريبًا، وقال عُبيدة مسرعًا: ما اسمك يافتى؟

ثم ابتسم له قائلًا وهو يذهب راكضا نحو القصر: يونس.

دخل القصر بغضبه الشديد، حتى قابل كبير الخدم أبيل، في ساحة القصر، وحكى له قصة الشاب ومنزله الذي فقده بكل غضب، لم يكن راضيًا أبدا عن هذا الظلم الذي واجهه هذا الشاب، أمر يونس بأن يرد هذا البيت إلى هذا الشاب عُبيدة في الحال، ونفذ أحد الحراس هذا فورًا حتى اطمئن أن البيت رُدَّ إليه ثم انصرف إلى غرفته منفردا، يفكر في حماقة هؤلاء البشر وما يفعلونه.

بعد بضع ساعات صعد أبيل كبير الخدم إلى غرفة الملك بعد أن هدأ غضبه، وعرض عليه أن ينزل معه ليرى تفاصيل القصر جيدًا، أخذه معه خارج غرفته وبدأ في الحديث عن القصر والملك، استمع يونس إليه جيدًا، حتى وقف أمام باب قديم يبدو إنه لم يفتح من عشرات السنين، ثم أخرج عدة مفاتيح من جيوبه حتى فتح الباب ودخلا معًا، كان التراب يملأ المكان حتى وقفوا وسطها ونظر إلى كم الكتب على الرفوف متعجبا من هذه المكتبة، وكانت تحتوى على كتب كثيرة وفخمة، كان معظمها يحكي عن أساطير الملوك قديمًا وما فعلوه في كل مدينة، وكتب لعلماء آخرين، ظل صامتًا أمام أبيل ينتظر الحديث منه أولًا، حتى قال أبيل وهو ينظر إلى عينيه:

ولدي أعرف حقا أنك لا تعرف شيئا هنا عن هذا العالم الغريب الذي

حولك، ولا تعرف المُلك أو حتى الملك نفسه، لا تتعجب من ذلك عندما نظرت إليك في المرة الاولى رأيت في عينيك هذا، تتعجب من أمور كثيرة، ومن عبادة البشر لك، وعرفت أنك إنسان نظيف تدافع عن الحق وتحب الخير للناس، وهذا لا يفعله إلا من يعرف طريقه إلى الله جيدا، والسلام النفسي الذي في داخلك، فأنت حقا مختلف عن باقى الملوك الذين جاؤوا إلى هنا ونهبوا خيرات البلد وفروا ذاهبين إلى عالمهم أغنياء دون الإنصات إلى الكتاب الذي يعرف أسرار هذا العالم وقوانينه، فمن الملوك القدماء من قال إنه خرافة، ومنهم من قال لم يتحكم بي بضعة أوراق قديمة؟ فكان جميعهم مصيرهم الهلاك، لم يدركوا أن هذا الكتاب إنه هو من يتحكم في هذا العالم ووفقًا لقوانينه التي يجب أن تتبعها، لم أعلم حقًا كيف هذا الكتاب يتحكم بهذا العالم، ولم أعرف كيف أبطل مفعوله، ولكن الأمر هكذا يا ولدي، وأنت حقا تشبه ولدي كثيرًا، لكن توفاه الله قديمًا حتى رأيتك فتذكرته للتلو، رجع أبيل إلى الخلف خطوتين والتف أمام الكتب وأخذ كتابا خلفه زر، ضغط عليه حتى فتح رفًا آخر أسفل قدمه، عليه كتاب كبير باللون البني الغامق، ثم أخذه وضغط على الزر مرة آخر حتى رجع الرف كما كان، والتفت إليه واعطاه له وقال:

خذه يا ولدي واقرأه جيدًا.

نظر إلى غلاف الكتاب وقال بغرابة: مدينة الباب !

تجمد فكره وظل واقفا مكانه مندهشا مما قاله أبيل، حتى تركه منصرفا مر عليه دقائق وهو ينظر للكتاب متعجبا، بدأ يفكر بصوت مسموع كيف لهذا

الكتاب أن يتحكم في مدينة بأكملها، وما قوانينه التي تؤدى إلى موت الملوك، هذا حقا أمر يستعصي على الشرح، تحرك من مكانه تجاه كرسي مكتب في ركن المكتبة، وجلس عليه وهو يطيل النظر إلى الكتاب، وما سمعه ورآه منذ يومه الثاني هنا في المدينة.

***

حل الليل عليه فلم يشعر بالوقت، وكان الكتاب واضحًا وصريحًا في كلماته مثل شمس النهار وقمر الليل، كانت أول أوراق الكتاب تتحدث عن المدينة بأنها دائرية الشكل ووصفها من جميع الجهات، وعدد مدنا أخرى لم يذكر أسماءها أو أي شيء آخر عنهم، قلب صفحات الكتاب التي أتت بوصف أهل المدينة، وأن أهل الباب يعتمدون على أنفسهم في الزراعة وصناعة لوجود مساحات كبيرة لذلك، وأيضًا الأسلحة مثل الدروع والسيوف، وأن أفراد الجيش طوال القامة بسبب أعشاب الاشواغاندا، وهذه الأعشاب تأتي من مكان ما لا يعلمه أحد، وتنزل وسط المدن، وإنهم يستخدمون الفيلة في حروبهم لضخامة أجسادهم، وباقى أفراد الشعب بشر طبيعيون تمامًا، حلت الابتسامة على وجهه عندما تحدث الكتاب عن العدل والمساواة وأن الملك يجب أن يعدل بين الناس، وأن العبادة لله وحده الواحد الأحد، وعن مكارم الأخلاق والرحمة بين الناس والتواضع بينهم، اندهش يونس مما قرأه فهو يعرف هذا الكلام جيدا فكلام الكتاب أشبه بالآيات القرآنية التي لم يعرف عنها إلا القليل، حتى نزلت دمعة من عينيه على الكتاب فتذكر قول عمه إدريس الذي فارق الحياة: (تذكر أن الحياة أقصر مما تتخيل فاحسبها

صح وامشي بدينك ساعتها بس ربنا هيكون معاك واللى معاه ربنا يابنى ديما كسبان)، لم يبقَ إلا ورقتان من الكتاب، وانفتحت عينه منتبها عندما رأى كلمتي.

قوانين الباب.

ذكر الكتاب بضعة قوانين هامة، واضحة بدقة لكل من ينصت إليها، حتى يتمكن الملك من السيطرة على المُلك والحكم بين الناس بالعدل، وكان من أبرزها:

• كل من يبوح بسر مدينة الباب في عالمه، سيموت بطريقة ما.

• إن لم ينصت الملك إلى قوانين هذا الكتاب ولم يعدل بين الناس سينفى بعيدًا في الصحراء إلى مكان لا يعرفه أحد حتى يأتيه الموت.

• صاحب السيف لا يقهر.

• من استخدم قوة السيف في محاربة المظلوم فسيقتل به.

• من نهب واهتم بجمع الذهب ستكون نهايته مؤسفة في عالمه.

• إذا نفذت هذه القوانين من الملك ستكون ملجأه إلى الرجوع حيثما جاء.

***

انصدم مما قرأه في آخر الكتاب، وقال محدثًا لنفسه:

هذا غير معقول، كيف لهذا الكتاب أن يتحكم بي وبالمدينة، هل سجنت هنا حقًا ولن أستطيع الذهاب إلى بلدى مرة أخرى؟ لكن نعم هنا كل شيء

غريب من الممكن أن يكون أبيل صادقًا فيما قاله، هذا العالم مليء بالأسرار الكثيرة، وأين المدن الأخرى الذي تحدث عنها الكتاب، وماذا هناك، وكيف لي أن أحارب ومن سأحارب، وذلك السيف الذي لا يقهر صاحبه، كيف ذلك، وأين هو، هذه الأشياء لم يستوعبها عقلي قَط، ولكن ربما لوجودى سبب حقًا في هذه المدينة العجيبة.

امتلأت السماء بأمطارها كأنها تطمئنه وتهون عليه مسيرته التي لا يعلم عنها سوى القليل، حتى اتجه إلى غرفته متعب الرأس بعد تفكير دام لبضعة ساعات، ودخل غرفته في إرهاق ثم استسلم للنوم.

***

في الظلام كان يقف أمام قبر والديه محني الوجه وعيناه مليئة بقطرات الدموع، كان يحدثهم مثلما يحدث الناس ويتمنى أن يكونوا على قيد الحياة، كان لا يمتلك شيئا سواهما، وهو الآن أمام قبرهم يطمئنهم بأنه سيستولي على المُلك من الملك وسيقتله، مثلما فعل الملك الآخر في أبيه وأمه اللذين ماتا فقرا وجوعا في مدينتهما، وما علمته الحياة في هذه اللحظة سوى الظلم وجمع الذهب من كل فرد في المدينة، كان القاسم ما زال يحتفظ بكل هذه الكراهية والغضب تجاه أي ملك يتولى العرش، فهذا حقه الذي أخذه الملك عندما غادر فهو أولى بحكم هذه المدينة التي لا تعرف إلا أخذ الحق بالقوة والخيانة والحكم على المظلوم بالظلم، انتهى من حديثه مع والديه أمام قبرهما ليلا، واتجه إلى غرفته بالقصر وجلس على كرسيه يفكر في خطواته الأولى تجاه هذا الفتى.

***

استيقظ يونس صباحا على صوت أبيل، يخبره بمسألة تحتاج إلى المشاوره وحكيم المدينة ينتظره في ساحة القصر، نهض يونس وارتدى ملابس الملكية، ونزل مع أبيل في ساحة القصر وجلس على كرسيه، وكان من يقف أمامه رجل كبير قوي البنية وفتاة فقط، حتى اقترب منه حكيم المدينة يخبره بأن الفتاة تمتلك قطعة أرض تزرع فيها البذور والثمار، ومدينة لهذا الرجل ببعض الذهب، حتى اضطر الرجل إلى أخذ الأرض بالقوة منها، ثم أخبره أيضًا بأن الفتاة تمتلك أرضا جميلة وواسعة وإذا أحب مولاي أن يستولي عليها سيكون الأمر مربحا له، وابتسم إليه ورجع خطوتين للخلف واقفا مكانه، نظر إليه بغضب وفهم ما يقصده، ونظر للرجل القوي البنية وكان الرجل يبتسم له، ثم نظر إلى الفتاة التي يقترب سنها من الخامسة والعشرين، وأطال النظر إليها، فإنها فتاة شديدة الجمال، شعرها أسود منسدل إلى الخلف، وعيناها كانت ساحرة، كانت تقف ورأسها منحنية للأرض، كانت مشاعرها مهزومة، لم ينصرها أحد في هذه المدينة، حتى أيقنت بأن أرضها ستؤخذ منها قسرا، أخذت قلبه في هذه اللحظة، وتذكر كل ما قرأه ليلا أمس حتى سألها بعد أن قام من عرشه وتقدم إليها: ما اسمك؟

قالت بكل ضعف: شمس يا مولاي.

نظر إلى أبيل نظرة سريعة وفي التوقيت نفسه دخل قادة الجيش إلى الساحة، وتقدم يونس إليها أكثر ونظر إليها وقال بصوت عال:

سأسدد دين كل مدين، ولا تؤخذ أرض ولا بيت بالقوة ولا قسرًا، ولا

جزية على أحد، ويتساوى القوي مع الضعيف والغني مع الفقير في كل شيء.

تعجب كل من في ساحة القصر مما قاله، مستغربين من فعل هذا الملك، فلم يفعل ملك هذا منذ سنوات مضت، وابتسم إليه أبيل فرحا مما فعله بنصر شمس على هذا الرجل الفظ، حتى غضب القاسم كثيرا وتوفان وذهبا إلى غرفتهم، كان الحكيم مصدوما أمامه، ثم أمر يونس بحبسه أمامهم جميعًا، فنظرت إليه الفتاة بفرح. وقال بابتسامة التي ظهرت على وجهها:

أين كنت في الماضي.

***

هكذا القدر يأخذني بعيدًا عن عالمي في بلاد غريبة لا أعرف عنها شيئا، حتى أخذني المصير في الدفاع عن مبدأ من مبادئي، فلا أتردد يوما عن فعل ما يتوجب عليَّ، ولا يبخل ضميري في توجيهي يوما ما عن فعل الصواب، فإن لم تحارب يوما عن شيء يستحق فلا داعى لسيفك يا صديقى واتركه جانبًا، وإن أتت بك الحياة إلى أن تقود معركة وأنت وحدك فاعلم أنك المنتصر يوما ما فيها، أعلم جيدا إنها ليست حياتي التي كنت أعيشها فقد كانت بلا هدف وشغف تجاه أي شيء، أما هنا في مدينة الباب بلاد العجب والعجائب وجدت ما يستحق المحاربة من أجله، حتى إن جاء الموت بلا موعد سأذهب إلى الله بنفس راضية عما كنت أنوي فعله من أجل هذه البلاد، وإن حانت لي فرصة رجوعي لعالمي فلن أرجع، نعم وأعلم يقينًا بأن لدي كثيرًا من الأعداء الذين لم أرَ في عينهم غير الغضب، سينصرني الله عليهم، وإن كانوا كثيرًا في هذه البلاد فسيكفينى اليقين بالله وشجاعة المحاربة.

هكذا كتب في أوراقه في غرفته، وتذكر أيامه في الماضي بأنه كان يريد المال من أجل نشر روايته الأولى، والآن أتى كل شيء وأصبح ملكًا، ولكن لم يآتِ قارئ واحد.

انتشر الحديث في المدينة عما دار في القصر بين الناس، وكانت الكلمات على كافة الألسنة، فهناك من يعارضون ما حدث، وهناك فئة قليلة مؤيدون، الأكثر لم يعجبها ما حدث ومعظمها من الجنود، أما البقية من أفراد المدينة الطبعيين، فرحوا غير مصدقين، من ضمنهم عُبيدة وشمس وكثير من طبقة الفقراء الذين عانوا من السلب والنهب من قبل قادة وجنود الجيش السنين الماضية، فأتاهم نصر الله دون موعد، ومن ناحية أخرى كان القاسم وتوفان في غرفتهم غاضبين مما فعله الملك، حتى صار القاسم يود قتله في الحال بأي طريقة، هدَّأ الآخر من انفعاله وفكر جالسًا على مقعدة محدثًا للقاسم:

كثير من الجنود لا يؤيد هذا الرأي، وقام واقفًا يمشي بخطواته ثم أكمل، وإنهم غاضبين الآن مما حدث، ثم قاطعه القاسم منفعلًا من هدوئه وقال: وماذا نفعل الآن؟

استدار بظهره له وابتسم له، واقترب منه حتى قال: سنحاربه من هذا الاتجاه، إن بعض قادة الجيش والجنود لا يحبون هذا الفتى الأحمق، ولم يعلم أيضًا بأمر السيف، وهم أيضًا الأغلبية، لذلك سيتبعونَ صفوفنا بكل سهولة، وحينها سننقلب عليه وسنحتل كل أجزاء المدينة، وستكون السيطرة كاملة لنا، وسأترك لك هذه المهمة لأنك شجاع وقوي، وهم سيستمعون إليك جيدًا، نظر له القاسم وابتسم، وقال بكل ثقة:

أحسنت التفكير ياصديقى.

أحسنتَ التفكير يا بنى، قالها له أبيل، في غرفته، بعدما نصر هذه الفتاة على الرجل، وأعجبه موقفه النبيل، ثم سأله عن اسمه:

لم أعلم اسمك حتى الآن؟

لم يلتفت إليه وقال: يونس يا عمي أبيل.

وقف أبيل أمامه خجلًا مما نداه به، ثم أكمل الآخر:

أنت في مقام عمي حقًا، وأنا ابنك هنا، أريدك أن تحدثنى حقًا عن المدينة، كل ما تعرفه عنها، ولماذا اندهش الناس في ساحة القصر مما فعلته مع شمس، وأريدك أن تخبرني كيف جئت إلى هنا، ولماذا أنا تحديدًا، وكيف أنا من نسل ملوك، لم أر والدي أو أمي منذ ولادتي، لكن لم يكن بينهم ملك أيضًا، وكيف تحكم الكتاب في المدينة بأكملها، وكل شيء عن الكتاب، وهل الملوك ماتوا حقًا، أم لا، وما أمر السيف المذكور في الكتاب، وإن أخذني القدر إلى هنا لسبب ما لم أعرفه، فالله يعلم إنني لم أندم على قدومي إلى هذه المدينة، وإن كان الاختيار بيدي للجأت إلى هنا أيضًا، ففي المدينة أكثر من سبب لبقائي، فكانت حياتي ممتعة بشخص ما، حتى مات دون أن أودعه، أنا أثق بِك حقًا، وأريد أن أفهم كل ما يدور من حولي، حتى أتمكن من فعل كل ما هو صائب للناس، فلا تخذلني.

في وسط المدينة

تجمع أصدقاء شمس هديل ويمنى في منزل والدتها، بعد ما حدث لها

في القصر، وبعد أن سمعوا من قرار الملك باتوا متعجبين، بعد أن أيقنوا أن أرضها ستؤخذ منها، حتى حزنت أم شمس كثيرًا، وانتظروا حتى تأتي ليعرفوا منها ماذا حدث، وبعد ساعة دخلت شمس عليهم بابتسامة فرح، هب صديقاتها واقفين واحتضنَّها، وسعدت أمها بما سمعته، جلسوا بجوارها حتى تخبرهم بما فعل الملك، وقالت يمنى سريعًا:

أخبريني هل ما سمعناه حقيقيًا؟

قالت وعلى وجهها ابتسامة: نعم يا فتيات هذا ما حدث، ونصرني الملك.

قالت هديل في تعجب: أتعجب حقًا من أمره، بعد مجيء الكثير من الملوك هنا على مدار السنين لم ينصرنا أحد.

قالت شمس: نعم حتى نصرني هذا الملك الشاب، لم أكن أتوقع هذا.

قالت أمها: شاب ! كيف يا ابنتي؟

نعم يا أمي إنه شاب ليس كبير السن، وأتوقع كل خير لهذه المدينة، وبعد قراره في موقفي هذا، هب واقفًا وقال كل من لديه دين سيدفعه هو.

فرح أصدقاؤها كثيرًا مما سمعوه منها، وجلسن مفكرين فيما يمكن أن يفعله الملك من أجل هذه المدينة.

شمس

بعد سعادتي من ما فعله الملك، نزلت إلى أرضي مجددًا لأرعاها ، مثلما أرعى أمي المسنة التي أعيش من أجلها بعد وفاة أبي، حتى رأيت عُبيدة في

أرضه القريبة من أرضي، تقدم إلى متحدثًا عما فعله الملك معي فرحًا، وأخبرني بأنه استرد بيته في ذات اليوم الذي أُخذ منه، وكان أيضًا متعجبًا، فرحت بما سمعت منه، كان عُبيدة يصغرني سنًّا وكان بمنزلة أخي، آنس به في ضيق حالي، وهو أيضًا كذلك، جلسنا نتحدث عن مستقبل هذه المدينة في سعادة، ثم أخبرني بأنه التقى بشاب لم يعرفه يسمى يونس، كان يتكلم بغرابة عنه وعن كلامه، وهو من ساعده أمام الناس، ولم يره ثانيًا، تعجبت مما قاله عنه، وضحكت كثيرًا عندما حدثته في أمر زواجه من يمنى، وعن حبه لها سرًا، الذي لم يبح به لأحد غيري، حتى انتهينا من الحديث وذهب إلى أرضه مجدداً.

***

اجلس بجواري يا ولدي، قالها أبيل في غرفة الملك، حتى يستمع إليه، جلس بجواره، منصتا له ثم بدأ الآخر الحديث:

سأبوح إليك بكل ما أعرفه عن المدينة وكل شيء من أسرار، كنت أريد أن أعرف نيتك أولًا ثم أيقنتها، لا أعرف حقًّا كيف جئت إلى هنا، فجميع الملوك اللذين جاءوا قديما كانوا يأتون من عوالم مختلفة، في لغاتهم وعروقهم وديانتهم، لم أفهم كيف يأتون أو كيف يغادرون، فهذا سر المدينة ولم يعرفه أحد، أما الملوك الذين جاءوا قبل مجيئك، لم يعرفوا طريق الحق والعدل، كان جميعهم ينهبون ويسفكون الدماء من أجل الذهب الذي في المدينة، ولم ينصت أحد إلى قوانين الكتاب، فمنهم من كان مصيره الهلاك أمام جيشه، ومنهم من مات بسيفه من أحد جنوده، ومنهم أيضًا من اختفى ولم تكن له رجعة، حتى آخر الملوك چارنيت اختفى فجأة في غرفته هذه، وأنت الآن من

نسله

قاطعه منفعلًا: كيف أنا من نسله؟!

اكمل أبيل: هذا السؤال لا أملك له إجابة، ولكن هذه الصورة التي تلي صورة

الملك الشبيه لك، كان ابنه الوحيد، كان دائما يصفه بالابن العار، الذي أحب خادمة في قصره وأنجب منها ولدًا، ولم أهتم بعد ذلك بباقي التفاصيل.

فتحت أعينيه مندهشًا مما قاله، وصار واقفًا يمشي بخطوات بطيئة، يحاول أن يربط الأحداث، بأن الأبن يمكن أن يكون والده، ولكن كيف هذا، ولماذا لم يخبره عم إدريس بهذا، وهل يعرف أم لا، كان في رأسه أسئلة كثيرة لم يعرف إجابتها، رجع إلى مقعده، ورأسه مشتت وقال: أكمل.

لا أعرف شيئًا آخر فيما يخص الملك، أو ما يخصك تحديدًا،

ثم أخذ شهيقًا وقال:

أما أمر المدينة، فقد شاهد سكانها على المدى الطويل من قِبل الجنود الكثير من الظلم، ولم يأت إلى هنا ملك ينصرهم على ما هم عليه، كان كل من ليس لديه القدرة على دفع الجزية التي تقدر بالذهب، يموت بأمر الملك، أو يؤخذ بيته أو أرضه، حتى يخاف الآخرون، ويعملون أكثر ويدفعون، وبعد ذلك باتَ أمرًا طبيعيًا للناس، فلا تتعجب من أمرهم الآن، عندما يروت حاكما منصفا، فحين إذن سيظهر كثير من الأعداء لك غير مؤيدين لما فعلته، مثل القاسم وتوفان المساعدين لك، كانوا أكثر قسوة من الملوك القدامى، فاحذر

جيدًا منهم.

قام واقفًا وأكمل:

أما عن السيف الذي يمتلكه الملك عند الجلوس على عرشه، فلا تظهر قوته إلا في يد الملك فقط، لذلك كان القاسم يسعى إليه دائما، حتى يتخلص منه، ويطمئن عندما يأتى ملك ضعيف دونه، وفي آخر أيام الملك چارنيت، أخذت السيف دون أن يرانى أحد، وخبأته في كوخ بعيد عن الأعين، لعل أحدًا منصفًا يأتي للناس.

قال متعجبًا: وما قوة هذا السيف؟

سيوف الجنود تتمكن من قطع رأس واحدة أثناء المواجهة، أما هذا السيف فيتمكن من قطع مائة رأس في ذات الوقت.

بعينيه الواسعة وفي اندهاش كبير قال: كيف هذا؟ لا أملك أيضًا جوابا عن هذا، ولكن سمعت ذلك من أحد الجنود الكبار، أخبرني أن أحد الملوك القدامى كان في المقدمة في حربهم، وكان معه السيف فدخل بين أعدائه، يلوح به بينهم، فسقطت كثير من الرؤوس على الأرض، وانتصر في الدقائق الأولى في المعركة.

صمت كأنه لم يصدق ما يقوله أبيل، ثم أكمل أبيل:

سنذهب ليلًا لاسترجاع سيفك أيها الملك.

قالها وغادر غرفته، تاركه مصدومًا مما سمعه من عجائب هذه المدينة.

***

وبعد حديث طويل دار بين القاسم وتوفان، اجتمع القاسم بقادة جيشه، وقبل أن يخبرهم بشيء، كان يريد أولا أن يتأكد من موقفهم تجاه الملك، حتى أخذ مشورتهم فيما حدث في ساحة القصر والقرار الذي اتخذه الملك، فمنهم من لعنه، ومنهم من وصفه بالأحمق الجاهل، والآخر هب واقفًا وقال من هذا ليتحكم بنا، في هذه اللحظة أدرك القاسم أن كل شيء على ما يرام، وأن خطة توفان تسير في الاتجاه الصحيح، وقف بينهم مبتسمًا وأخبرهم بأنه سيجتمع معهم ثانيًا لأمر مهم يجب تنفيذه عاجلًا.

وفى هذه اللحظة نظر أحد القادة إلى القاسم بغضب شديد وهو جالس بين هؤلاء القادة على مقعده، بعدما فرح بموقف الملك تجاه الفتاة، حتى إنه لم يبح بمشاعره وفرحته إلى أحد، أدرك الآن نية القاسم تجاه الملك، بأن يجمع جميع القادة ضده، حيث أغضبه ذلك كثيرًا.

قبل حلول الليل عليه، كان لايزال جالسًا على مقعده، يفكر فيما قاله أبيل عما يعرفه عن المدينة وكتابه، وعن أمر والده الذي لم يره منذ ولادته، ثم قرر أن ينزل وسط المدينة مجدداً، ولبس ملابس قديمة، وأخفى وجه مرة أخرى، حتى لا يتعرف عليه أحد، ثم انطلق خارج القصر، ليأتي في رأسه الشاب الذي ساعده (عُبيدة)، حاول أن يستعيد ذاكرته إلى بيته وظل يتجه بخطواته إلى نفس المكان، ولكن بلا جدوى، ظل يمشى بخطواته بين الناس، يحاول أن يسمع الحديث بينهم عما سار في القصر، وقف فجأة عند جنديين أحدهما يصفه بالسَفِيه الأحمق، اقترب بخطواته إلى الجنديين، كان الاثنان يقفان وجها

لوجه، أحدهما كان طوله لا يقل عن مترين، والآخر أكثر ببضع سنتيمترات، يرتديان الدروع، واحد منهما يمسك سيفا بيده وكان عاري الصدر وعضلاته بارزة، والآخر كان السيف بجانبه، تقدم يونس إليهما، حتى وقف بينهم بثقة وقال: من السَّفيه أيها الجندي!

نظر إليه الجندي الذي يمسك سيفا بيده بغضب، وقال: الذى يريد المساواة بيننا وبينكم أيها الفتى المُتخفي.

قال بثبات: أتقصد الملك؟ اقترب منه الجندي الآخر إلى وجه وقال وهو ينظر إلى عينيه:

هذه الأرض ملك لنا منذ القِدم، وأنتم هنا خدم لنا وللعرش، والآن يأتي فتى ليساوي بيننا وبينكم، وأكمل وهو يمد يده إلى سيفه، هل هذا يعجبك أيها المُتخفي.

نظر إلى السيف، حتى أيقن أن الجندي يريد قتله في الحال إذا لم يبتعد عنه، وقف ثابتًا وقال: لا، لا يعجبني هذا.

وابتعد عنهم، حتى قال الجندي الآخر الذي بيده السيف: انتظر.

وقف في مكانه والتفت إليه، ونظر إلى الجندي الذي يتجه إليه ثم وقف أمامه، وقال: أريد أن ارى وجهك أيها المُتخفي.

ارتبك ولم يعلم ماذا يفعل وظل صامتًا، حتى فوجئ بالجندي يضربه بدرعه على وجهه، حتى سقط على الأرض، وظهر نصف وجهه، اقترب منه أكثر مشيرًا إلى سيفه قائلا: أرني وجهك الآن وإلا قتلتك.

فى هذه اللحظة دخلت عربة سريعًا، يجرها فيل ضخم بين الناس، وتوقفت عند الجندي الذي كاد أن يقتله، نظر الجندي إلى العربة ووقف ثابتًا يحيي قائده، وحل الصمت على الجميع، مهابًا خوفًا من قائده (أبو عبيده)، الذي يمتلك براعه التفكير في الحرب والشجاعة والقوة التي تهزم خصمه قبل بدء المبارزة، وأيضًا لم يكن جميع الجنود يؤيدونه، لاختلاف تفكيره بأن هذه المدينة ملعونة، ولم يكن يرضى من داخله عن أوامر القاسم وتوفان، اللذين يسفكان الدماء من أجل السلطة والذهب، حتى فرح بما فعله الملك في ساحة القصر مع الفتاة، وأشتد الغضب به عندما اجمع القاسم قادة الجيش، وعرف بما ينوي القاسم عليه اتجاه الملك، وقفت العربة أمامهم ثم فتحت باب العربة ونزل بخطواته، نظر إليه مترقبًا بما يفعله، في هذه اللحظة ازدحم أهل المدينة ومن بينهم عُبيدة وشمس، ينظرون إلى القائد الذي وقف بين الجندي ويونس الملقى على الأرض، نظر القائد إلى يونس ومد يديه ليسنده حتى وقف معتدل غطاء وجه أمام الجندي والقائد بينهم، وقال القائد محدثًا يونس: ماذا حدث أيها الشاب؟

رد بقوله: كان يسب الملك ويلعنه يا سيدي.

نظر القائد إلى الجندي الذي ينظر إلى الأرض وقال: هل هذا صحيح أيها الجندي؟

قال الجندي: نعم سيدي.

قال القائد موجهًا حديثه إلى الجندي: ألق بسيفك ودرعك على الأرض أيها الجندي.

اندهش الاثنان مما قاله القائد، وظل الجندي واقفًا متسع العينين متعجبًا مما سمعه من أمر، وظل متجمدًا مكانه، وأمسك بسيفه ودرعه وألقاهما أرضا.

فأكمل القائد: اذهب إلى القصر الآن فأنت خادم بين الخدم.

أخذ الجندي يمشي بخطوات بطيئة بين الناس، ورأسه منحن أرضا حتى غادرهم، في ذات الوقت اقترب عُبيدة من يونس الذي عرفه من غطاء وجهه وخلفه الشمس، ابتسم له متخفيًا، كاد يحدثه، حتى أكمل القائد حديثه:

لماذا أنت مُتخفٍ أيها الشاب؟

قال يونس: لست مُتخفيا سيدي وإنما نصف وجهى الآخر غير مقبول للناس.

قال: حسنًا فهمت الآن.

ثم تركه واتجه مغادرًا إلى العربة يفتح بابها، ثم قال يونس: شكرًا لك.

نظر إليه قبل أن يدخل إلى العربة وقال:

اليوم ساعدتك، وغدًا سأسعى لغيرك، فإذا أردت شكرى فساعد غيرك غدًا، لتزور معنى الإنسانية هذه المدينة الملعونة.

وذهب مسرعًا، ظل يونس واقفا مكانه ينظر إليه حتى ابتعدت عربته، ظل عُبيدة يحدثه وهو سارح، كان يونس قد أعجب بفعل القائد وشجاعته وأنه لا يخاف أحدًا، حتى تقدم عُبيدة أمامه وبجانبه شمس وقال:

يونس، هل أنت بخير؟

نظر إليه وتذكره مسرعًا وقال: نعم، عُبيدة صحيح، لقد تذكرتك.

قال: نعم يا يونس قد عرفت من غطاء وجهك الذي كنت ترتديه من يومين، كيف حالك، وماذا حدث هنا، لينقض عليك هذا الجندي؟

لا عليك ياعُبيدة إنه أمر بسيط.

حسنًا، سأعرفك بشمس.

تفاجأ بها وتذكرها في الحال، كانت هي الفتاة الذي دافع عنها، كانت أجمل من المرة السابقة بعينيها الساحرتين، نظرت مبتسمة له بوجها الجذاب وقالت:

أهلا بك في مدينتنا يا يونس.

ابتسم لها وقال: أهلًا بك يا شمس.

لاحظ عُبيدة شروده، وأخبره أن يذهبوا إلى مكان ليتحدثوا فيه، بعيدًا عن الناس، وأخبره بفضوله تجاه معرفه قصته، ولماذا كان يتحدث في المره السابقه بغرابه، وافقه يونس، وذهبوا إلى أرض عُبيدة، وجلسوا في منتصفها، وسط أجواء هادئة على الأرض بين أشجارها، حتى بدأ عبيدة السؤال قائلا:

ما قصتك أيها الغريب، ولماذا تغطي رأسك، أعلم أن وجهك سليم عندما رأيتك المرة السابقة.

وقالت شمس: ألست من أهل المدينة؟

صمت لحظة، ثم أخبرهم بأنه ليس من أهل المدينة حقًا، ولم يعرف كيف جاء إلى هنا، وأن بلده مختلفة عن هذه المدينة، ثم أزال غطاء وجهه، لكنه فضل التخفي وسط هذه المدينة لأنه غريب، ولا يعرف ماذا يحدث له عندما يرى الناس شخصًا غريبًا بينهم.

اندهش عُبيدة مما سمعه منه، ونظرت شمس إليه، ولاحظت وجه الشبه بينه وبين الملك الذي دافع عنها، لكن ذهبت هذه الفكره عنها سريعًا، وقالت له:

كيف هذا؟

قال: هذا ما حدث.

قالت: ولكن أين بلدك، وما اسمها؟

قال: اسمها مصر، ولا أعرف أين هي الآن.

قالت: عجبًا، إن أمرك غريب.

حتى سأله عُبيدة عن مكان معيشته في الأيام المقبلة، ارتبك من سؤاله وأخبره كذبًا أنه يقيم عند رجل في منزله ويعمل معه في صناعة الدروع، وسأله يونس بسرعة عن المدينة، ولماذا هي غريبة هكذا، رد عليه بما أخبره أبيل مسبقًا، عن المدينة والحكام، حتى قالت شمس ليونس أن مستقبل المدينة سيتغير قريبًا بمجيء الملك الجديد، وأخبرته أيضًا أن بينه وبينه شبها، تعجب عُبيدة مما قالته وأخبرها أنه لا ملك يجلس هكذا، حتى صار الأمر مضحكًا لهم، وبعد ضحكهم سأله عن هذا القائد وما اسمه، أخبره بأنه يسمى (أبو

عُبيدة) وأنه الوحيد من القادة الذي لا يرضى بظلم أحد هنا، فرح من قلبه لأنه لم يكن الوحيد الذي يدافع عن المدينة وشعبها، فهناك كثير مثله، سألته عما كان يفعل في بلاده، أخبرها أنه كان يعيش وحيدًا في عالمه، ولم يرَ أباه أو أمه منذ ولادته، وأخبرها عن عم إدريس الذي رباه واتخذه أبًا له، وأخبرها أنه كان فيلسوفًا، ولم يخبرها عن المكتبة ولا عن المذكرات ولا عن شيء آخر، وسرعان ما دخل الليل عليه وهو يجلس معهم، وتذكر أبيل والسيف، هبَّ واقفًا وأخبرهم إنه يجب أن يذهب الآن، وقفا الاثنان ووعدته شمس بأنها ستساعده هي وعُبيدة في هذه المدينة، فرحب بهذا وعبر لهم عن مدى سعادته بمعرفتهم، وأنه سيجتمع بهم مرة أخرى وتركهم مغادرًا إلى القصر.

دخل إلى غرفته، وانتظر أبيل بضعة ساعات ليأخذه إلى مكان السيف، ثم دخل عليه في منتصف الليل يخبره بأنه مستعد للخروج معه، ذهب معه خارج القصر وكانت تنتظرهم عربة بحصان أبيض كثيف الشعر، تعجب يونس من الحصان ثم سأله وهم يتجهون خارج المدينة، عن الفيلة في المدينة، ولم ير أحصنة إلا عدد قليل منذ أن جاء، أجابه أبيل وهو يمسك بحبال الحصان أن الفيلة للجنود الطوال القامة، يستخدمونها في حروبهم، لتفزع الأعداء منهم، أما الحصان فهو للبشر الطبيعين، أما ذلك الحصان ليس بحصان طبيعي فإن سرعته لا مثيل لها، فهو للملك فقط، اندهش مما قاله، ولاحظ أن الحصان يسير بسرعة غير عادية، حتى دخل بهم إلى عمق الصحراء، مر من الوقت قرابة الساعة، ثم وقف الحصان في مكان ما، قرب جبل كبير، له فتحة تساعد على سير شخص واحد، نزل أبيل من العربة وأخذ مصباحًا كان معلقاً فيها، وأنار الطريق إلى الداخل ويونس معه، دخل الفتحة بمصباحه وهو خلفه،

كان الطريق يأخذهم في مسار طولي، ثم ينحدر يمينًا، ومشوا بضعة دقائق، ثم سأله في تعجب عن هذا الطريق، فأجابه وهو يمشي بخطواته البطيئه: إن هذا الطريق يؤدى إلى غرفة كان يسكنها أحد عبدة الشيطان، انتفض من قوله وصمت، ثم أكمل الآخر، كان بشرًا يسخر ما يحلو له من جن وشياطين، وكان يدعي (أسنا)، ثم اختفى فجأة من هذا المكان، ولم يأت إلى هنا أحد، خوفًا أن تصيبه لعنة، ثم قال يونس بارتباك: ونحن الآن، ألم نُصَب بلعنة؟

ضحك أبيل ثم قال: لا بإذن الله.

بعد ذلك أخذ الطريق مساره إلى غرفة مربعة الشكل، دخل فيها أبيل بمصباحه ويليه يونس، وكان في منتصف الغرفة منضدة، لا شيء آخر، وقف أبيل ويونس في منتصف الغرفة وبينهم المنضدة، يشير أبيل بمصباحه ينير بها فوقها، ثم قال له: هذا سيفك.

تحسسه للحظات ثم أخذه بيديه، وأمامه أبيل ينير له بمصباحه، كان يتمعن فيه متعجبًا من طوله، ومن النقش الذي كان عليه، ومن لونه الذهبي اللامع ومن وزنه الثقيل، أيقن تمامًا إنه ليس سيفا طبيعيًا، ثم أمره أبيل أن يمسكه من مقبضه، ففعل، ثم لاحظ أن وزنه أصبح طبيعيًّا، حتى أنار السيف فجأةً فانفتحت عينه مندهشًا، وأمسكه بإحكام وبكل ما أوتي من قوة، فتراجع أبيل للخلف، وشعر يونس بشيء غير طبيعي بين يديه والسيف، حتى أيقن أبيل بأنه قوة السيف تلاقت مع صاحبها، ثم أخبره أنه لم يشعر في حياته بمثل هذا الشعور أبدا، وأخبره أبيل بأن هذه هي قوة السيف، ثم أخبره أيضًا أنه يجب أن يذهبا في الحال، أخذ مصباحه، واتجها إلى طريق الرجوع ويونس

خلفه يحمل سيفه، وخرجوا من المكان بسلام، واستعدوا للرجوع بالعربة إلى القصر، ثم أخبره في الطريق أنه لم يمتلك مهارة المبارزة، فقال له أنه يجب أن يتعلم ذلك، ثم دخلوا إلى القصر، ودخل كل منهما إلى غرفته، وكان لم يصدق حتى الآن أن هذا السيف يقطع مئات الرؤوس في الحال، إنها قوة لا مثيل لها، وقد لاحظ أحد الخدم في هذا الوقت السيف في يد يونس، لم ينتظر كثيرا واتجه إلى توفان ليخبره بما رأى، حتى اندهش توفان مما سمعه من الخادم ودخل الخوف إلى داخله، وجلس يفكر في هذا الأمر، وفي خطته الذي ينفذها القاسم، حتى أيقن بأن الأمر أصبح مستحيلا، وأنه لن يكسب هذه المعركة، حتى يعيد حساباته.

استيقظ مبكرا في الصباح في غرفته وبجانبه سيفه، بعد مرور دقائق عليه نزل إلى حديقة القصر يفكر فيما يفعله في هذه المدينة، ومن أين يبدأ، حتى توقف تفكيره حول أنه لا يجيد المبارزة مثل الفرسان، وأخذ سيفه من جانبه وأمسكه جيدًا يلوح في الهواء يمينًا وشمالًا مثل الجنود الماهرين حتى يتعلم، مرت الدقائق عليه يحاول التحكم في السيف أكثر، ولكن كان السيف يقع أرضًا في عده مرات، حتى أيقن إنه لن يتعلم بمفرده ويجب أن يتعلم من شخص ما، علق سيفه على خصره مرة أخرى وأخذ يمشي بخطوات بطيئة في الحديقة فخطر بباله القائد الذي ساعده في وسط المدينة، فاتجه لساحة القصر، وتفاجئ بتوفان ينتظره، تقدم توفان إليه فحيَّاه، وتذكر ما قاله له أبيل عند توفان والقاسم، حتى قال توفان أمام يونس: مولاي الملك أريد أن أخبرك أمرًا مهما.

رد عليه: تفضل.

أستكمل توفان قائلًا: مولاي، هناك مؤامرة ضدك.

قال: أي مؤامرة؟

توفان: القاسم يامولاي، يجمع كل الجيش ليتحالف ضدك.

قال وهو ينظر إلى أعينيه: حقًا؟

توفان: نعم يا مولاي.

لم ينسَ حديث أبيل، بأن توفان أذكى وأقوى من القاسم ويجب الحذر منه، فشعر بأن هذه لعبة يلعبها توفان والقاسم ضده، فتقدم منه قائلًا: وأنت يا توفان؟

نظر توفان إلى جانبه ورأى سيفه، فدخل الخوف إليه وقال: أنا ماذا يامولاي.

يونس: ألن تكون معه؟

توفان: لا يا مولاي، أريد فقط أن أثبت ولائي لك.

يونس: حسنًا، أريد مقابلة قائد يسمى (أبو عُبيدة) الآن.

توفان: أمر مولاي، قالها منصرفًا عنه وذهب.

ثم اتجه يجلس على عرشه، ينتظر هذا القائد النبيل الذي ساعده، وعندما أتى أبيل أخبره بما حدث مع توفان، حتى غضب محذرا إياه منه، حتى أتى القائد ودخل إلى الساحة ملقيًا التحية، ونزل يونس من عرشه وتقدم إليه،

يمد يده إليه، وقال: أهلًا بك.

مد القائد يده ليصافحه في تعجب، وشعر بتواضع الملك، فقال: أهلًا بك يا مولاي.

قال يونس: سمعت أنك دافعت عن شخص وسط المدينة، وعاقبت الجندي بأن يكون خادمًا هنا، هل هذا صحيح؟

رد القائد بثقة: نعم يا مولاي، صحيح؟

قال: ولماذا دافعت عنه؟

رد القائد: أكره الظلم الذي ينبعث من الجنود والقادة يا مولاي، لذلك فعلت هذا إنسانيةً.

قال في الحال: وهذا ما أريد فعله في هذه المدينة، المدينة الملعونة، أنا من ساعدته أيها القائد.

تعجب القائد مما قاله له، وفرح كثيرًا بما ينوي فعله في هذه المدينة، فانفتحت عيناه غير مصدق ما أخبره به، وقال: مولاي، كيف أنت الذي ساعدتُه؟

قال يونس: أنا من كان سيقتل من الجندي، حتى أتيت أنت ووقفت بيننا، انظر لي جيدًا، كان نصف وجهي واضحًا لك.

نظر أبو عُبيدة له بدقة في عينيه، حتى انصدم عندما تذكر إنها نفس الملامح ونصف الوجه، ونفس الصوت الذي تحدث به، صار اندهاشه أكثر وقال:

مولاي، لماذا فعلت هذا؟ كان من الممكن أن تقتل على يد هذا الجندي اللعين؟

قال يونس: ولكن لم أقتل، لذلك أنت هنا، ولم أنسَ لك هذا، إني مدين لك بحياتي، وأريدك أن تساعدنى في هذه المدينة، لتعيش في سلام.

زاد حماسه عندما سمع كلماته الأخيرة، فوافقه على الفور دون تردد، وصدره مليء بالفرح والسعادة، وقبل أن يخرج أخبره بما ينوي عليه القاسم من مؤامرة ضده، بما أكد حديث توفان له، وخرج من القصر مُطلق الجناحين.

***

إن لم تكن سعيدًا الآن فمتى ستكون؟ إن لم يكن بيدك تغيير المستقبل المجهول، ومنع القتل وإحباط الظلم ونصر المظلوم فلماذا أنت موجود، إن لم يكن بيدك فعل كل ما هو صائب للناس حتى يأتيك قضاء الله، فلماذا تعيش، وتذكر يا صديقى إنه لم يذكر في التاريخ أن الملوك فقط من يفعلون هذا، فكن إنسانًا أولًا، حين إذن ستكون ملكًا لنفسك.

أبو عُبيدة

انطلق حرًّا بسيفه في المدينة بعد حديثه مع الملك، والابتسامة تعلو وجه فرحًا، يُبشر كل من أمامه بمستقبل جديد لهذه المدينة، بعد أن ساد الظلم، حتى انتشرت الأخبار بين الناس والجنود، وانتقلت الأخبار إلى القاسم وغضب كثيرًا، وكان أبو عبيدة ينتظر هذه اللحظة منذ زمن، وبعد أن أتت

زادت قلبه فرحًا، كان في الخامسة والثلاثين من عمره، فقد رباه والده قبل وفاته منذ الصغر على الحق ومساعدة غيره من الناس، وطاعة الله وحده، لذلك لم يحبه أفراد الجيش ولا الجنود، إلا قليل منهم اجتمعوا حوله، فعاش بينهم صديقًا لهم، وبعد أن انتشرت الأخبار في المدينة بين الغضب والفرح، ذهب إلى الصحراء، ووقف على قمة جبل تطل إلى المدينة بأكملها ينظر إليها، ويشكر ربه على استجابه دعواته، وينصر أهلها الضعفاء بعد ما رأوه من ذل وظلم ودماء.

***

وقد جاء الليل في غرفته وهو جالس وأمامه أبيل، الذي أخبره عن القائد النبيل بأنه حقًّا من يثق به في هذه المدينة، ثم تغير مسار الحديث إلى القاسم وما ينوي فعله، طمأنه يونس أنه سيتصرف في هذا الموضوع غدًا، حتى تعجب أبيل، ثم أخبره عن الحديث الذي دار بينه وبين الجنديان، والشاب (عُبيدة) وشمس، اندهش أبيل مما فعله بأنه كاد أن يقتل لولا القائد، حتى أتى اسم شمس، وتحدث عنها وعن جمالها الشديد، وظل أبيل صامتًا مستمعًا له، ثم توقف يونس فجأة عن حديثه ونظر له، وقال أبيل: ألم تحب في عالمك يا ولدي؟

أجابه سارحًا بعد أن وقف أمام النافذه ينظر إلى المدينة: لا، لم أحب.

ثم قام ووقف خلفه وقال: لماذا؟

قال: كلمة حب لن تكون مجرد كلمه فقط، فإنها تعني الكثير، تعني الطمانينة، تعني التضحية، تعني الأمان، ولم يدق قلبي لفتاة في عالمى، كنت

وحيدًا استمتع بجلوسي منفردًا بين أوراقي وقلمي، كانت حياتي مملة لم أستمتع بها، وقد تغيرت في لحظة واحدة بالمجيء إلى هنا، أتعلم أنني سعيدًا هنا؟ أنا هنا أعيش من أجل شيءٍ له معنى، حتى رأيت شمس هنا، في عالم ليس عالمي، ربما تكون هناك حكمة في هذا، ولكن لا أعلمها الآن. مد يده إلى كتفه يهون عليه ما مضى من حياته الماضية، ثم قال:

نعم هناك حكمة من الله فيما يفعله بك، ولكن اعلم يا ولدي أنه لا يأتي من عند الله إلا الخير، ولكن فكر الآن في خطوتك التالية هنا، واعلم دائمًا أني أساندك في كل شيء.

نظر إليه وقال: نعم سأفعل ذلك، لكن أولًا أريد مقابلة عُبيدة.

استغرب أبيل مما قاله، حتى أكمل: نعم عُبيدة، اتخذته صديقًا لي، إنه شاب ذو أخلاق، أستأنس به هنا، في هذه المملكة الغربية، وقال أبيل:

وهل ستخفي أنك الملك عنه، وعن شمس؟

قال بكل جدية: نعم، أريد أن يعلما الجزء الذي أخفيه من شخصيتي عن الناس هنا، حتى يأتي الموعد الذي أخبرهم في بالحقيقة.

قال أبيل: حسنًا، كما تشاء.

قال يونس: أريد عربة قديمة، حتى أذهب إلى بيته الآن.

ثم قال أبيل: وهل ستخفي وجهك مثل كل مرة؟

قال: لا، لم يشك بى أحدًا، لم يظن الناس أن الملك بينهم أو بقربهم لحظة

واحدة، هذا ما لاحظته هنا.

قال أبيل: حسنًا يا ولدي، سأفعل هذا في الحال.

ثم تركه منصرفًا، أخذ يبدل ملابسه بنفس الزي الذي يخرج به، حتى لا يلاحظه أحد، وانتظر دقائق وانطلق خارج القصر من البوابة الخلفية، ليجد عربة بحصان، فهذا ما يتطلبه، حتى يذهب إلى عُبيدة، دخل العربة يشد لجام الحصان ومضى لم يخطئ هذه المرة، وأخذ ينظر إلى الجنود وهم غير مدركين ما يفعلون من شربهم للخمر، وفقد وعيهم الكامل، لم يتعجب هذه المرة مما يفعلون وأخذ طريقه إلى بيت عُبيدة الذي ساعده في أول لقاء بينهما، وقف أمام البيت ثم نزل من العربة، ووقف أمام الباب يطرقه، ثم سمع خطوات تتجه نحوه الباب وتفتحه، ثم قال بابتسامة: عُبيدة.

قال عُبيدة بعد أن سعد بلقائه: يونس أهلًا بك يا صديقى، تفضل.

دخل إلى بيته، على الرغم من أن البيت كبير إلا إن بنيانه قديم، جلس على أريكة أمامها منضدة، ثم نظر إلى الحائط ورأى سيفًا قديمًا معلقًا عليه، أخذ عُبيدة كرسيًا وجلس بجانبه بعدما قدم له مشروبًا مستخلصا من بذور الفاكهة فأخذ يتذوقه شاكرًا له، ثم بدأ عُبيدة الحديث وقال:

أخبرني كيف كانت الليالي الماضية معك، وهل وصلت إلى شيء هنا ليساعدك في الرجوع إلى عالمك؟

ثم قال يونس: أنا بخير الحمد لله، أظن أني اعتدت على المدينة هنا بعض الشيء، أما عن رجوعي إلى عالمي فلم أصل إلى شيءٍ.

قال عُبيدة: اظن أن الملك يمكنه أن يساعدك في هذا، ربما يعرف شيئًا.

قال وهو ينظر إلى السيف المعلق على الحائط: نعم ربما، ولكنك ستساعدني في ذلك، لم أعرف أحدا هنا سواك أنت وشمس.

ابتسم له عُبيدة قائلا: هذا لا شك فيه يا صديقى، إنني أحببتك كثيرًا، رغم أن هذا لقاؤنا الثالث فقط.

قال يونس: وأنا أيضًا أتخذك صديقًا لي مثل أخى تمامًا، الآن أخبرني كيف تسير الأمور معك؟

قال عُبيدة: كل شيء حتى الآن على ما يرام، وسمعت أخبارا من بعض الجنود بأن الملك أزال الجزية التي ندفعها، وهذا ما سمعته من شمس أيضًا.

قال: هذه أخبار جيدة.

قال عُبيدة: نعم.

ثم قال ناظرًا إلى السيف مرة أخرى: هل هذا السيف سيفك؟

ثم قال عُبيدة بعد أن تبدل وجهه حزنًا:

لا كان مِلك أبى، كان يحب المبارزة كثيرًا، كان في الليل دائما ما يصحبني إلى مكان بالقرب من أرضنا، حتى يعلمنى كيف أمسكه وكيف أدافع به عن نفسي حتى تعلمت جيدًا، وصرت مثله.

رآه حزينًا فأخذ يواسيه، ويحاول أن يغير الحديث، ثم قام واقفًا واتجه نحو السيف وقال: أنت فارس إذن؟

ضحك عُبيدة وقال: لا لم أكن فارسًا.

ثم قال وهو يمسك بالسيف: أتعلم أنني لم أمسك بسيف في حياتي، ولم أعرف كيف أستخدمه.

ثم قال عُبيدة متعجبًا: ألا من سيوف في عالمك؟

قال يونس: لا، كنا نستخدمها في القرون الماضية قديمًا، وبعد ذلك كل شيء تطور مع أستخدام الأسلحة النارية التي تصيب الأشخاص على بعد كيلومترات.

اندهش عُبيدة مما قاله، وسأله: كيف هذا؟

قال: بالضغط على زناده يطلق رصاصة في الحال ويصيب الشخص الذي أمامك.

قال: عجبًا لهذا!

أخذ يضحك من تعجبه، وبعد لحظات عندما توقف قال بجديه: أريدك أن تعلمني كيف أستخدم السيف، ربما أدافع به عند نفسي يوما ما هنا.

قال عُبيدة: حسنًا يا صديقى، فإنه أمر سهل، سأعلمك في المكان الذي كان يعملني فيه أبي.

يونس: حسنًا هذا جيد.

عُبيدة: متى تريد؟

قال بجدية: من الآن يا أخي.

أخذ عُبيدة السيف وثبته على جانبه، وأخذ سيفًا آخر ليتعلم يونس به، انطلقا معًا خارج البيت وركبوا العربة، التي تتجه نحو شمال المدينة ليلًا بعيدًا عن الناس، ثم سأله عُبيدة عن العربة، أخبره بأنها مِلك للرجل الذي يعمل معه، وبعد نصف ساعة من السير أشار عُبيدة بيده إلى المكان، حتى نظر يونس للمكان خلف الأراضي الزراعية كانت أرضًا رملية خالية، بعيدة عن البيوت، وخالية من البشر تمامًا، وكان عُبيدة قد أخذ من بيته قبل أن يذهبا بعض الأخشاب، وعمودًا خشبيا طويلا، وقطعه من القطن الكبيرة، توقفت العربة ونزل عُبيدة بالأخشاب ليُشعل فيها النار، وثبت العمود في الأرض، وربط بها قطعه القطن الذي تكون على شكل رأس، وبعد دقائق أنارت جزءًا من هذه الأرض، وأمسك عُبيدة بسيفه وأمامه يونس يمسك سيفه الآخر وقال:

هذا أول درس لك يا أخى فأنظر إلي جيدًا، وافعل مثلما افعل، حسنًا؟

هز رأسه موافقًا على كلامه، ثم أمسك عُبيدة سيفه، ثم فعل يونس مثله في الحال، ثم لوح بسيفه يمينه وشمالًا في بطء، حتى يتقن نفس الحركات، استمر عُبيدة يلوح بيده ببطء، ثم أخذ يسرع من حركته بعض الشيء وأصيب قطعه القطن في رأسها، ثم هجم عليه عُبيدة فجاة بسيفه هجمة تصدى لها في الحال، وأخبره أنه شديد التركيز، وأكمل بسيفه يهجم عليه من أماكن مختلفة، ويتصدى يونس إليه في كل مرة، استمر عُبيدة في الهجوم عليه، وفي حركه احترافية من عُبيدة أنزل سيفه أرضا، فأخبره أنه يخدعه بالهجوم عليه، ثم قال عُبيدة له: كل ما لا تتوقعه من الممكن أن يأتي لك في أي لحظة ، فكن

حذرًا، وأمسك بسيفك جيدًا.

من الرغم من صغر سن عُبيدة، عرف يونس أنه مر بالكثير في حياته في هذه المدينة، أنصت إليه جيدًا، ووافقه على كلامه، ثم أخذ سيفه الملقى على الأرض، وبدأ الهجوم عليه، تصدى عُبيدة له، وهجم هو الآخر عليه، قامت معركة قوية بين الاثنان استمرت لدقائق، وشهدت السماء من أعلاها، وهى تنظر إليهم، بأنهم فرسان غد.

***

فى الصباح الباكر إهتزت أركان القصر بما كل من فيها، واستيقظ يونس مفزوعًا كأنه كان يحلم بكابوس، سمع طرقات بابه السريعة التي تكون خلفها القائد (أبو عُبيدة) وأبيل، يخبرونه أن القاسم جمع أكثر من نصف الجيش ضده، وأنه يتقدم إلى القصر ليستحوذ عليه، أيقن أن المعركة قد بدأت، أخذ يلبس ملابسه الملكية، وأخذ سيفه، بعد أن تعلم بعض الشيء مساءً مع عُبيدة، نزل معهم إلى الأسفل، ووقف على درجات السلم العالية أمام بوابة القصر الحديدية المغلقة، وكان أبيل على يمينه والقائد شماله وتوفان خلفه يترقب ماذا سيحدث، وقف ثابتًا منتظرا عدة دقائق، ثم نظر فشاهد القاسم وجميع قادة الجيش بأفيالهم قادمين، ومن خلفهم جنود لا عدد لها، يحملون سيوفهم إلى الأعلى بأيديهم ودروعهم، يبدو على وجوههم الغضب، كان المنظر مهيبا، لم يرى هذا منذ أن ولد، والآن بات الأمر حقيقيًا، يجب أن يدافع عن هذه المملكة، زاد حماسه أكثر عندما اقتربوا منه، وقرر أخيرًا أن يقاتل، بعدما اجتمع أهل البلده جميعهم حول القصر، حتى وقفوا أمام

البوابة الحديدية، ونظر إليه القاسم بابتسامة نصر، ثم سأله القائد ماذا يفعلون؟ أيقن القاسم من وقوفه أمام البوابه أنه خائف منه، ومن المحتمل أن يستسلم أمامه وأمام جيشه الكبير، حتى قال القاسم مبتسماً: هل أنت خائف أيها الفتى؟

صمت للحظات ثم أمر أحد الخدم أن يفتح بوابة القصر، حتى تعجب الخادم من أمره، ونظر إلى ملكه حتى هز رأسه تأكيدًا لما قاله، فاختفت ابتسامة القاسم بعد أن فُتحت البوابة أمامه متعجبًا، في ذات الوقت اقترب عدد من جنود (أبو عُبيدة) والتفوا حوله، وحول يونس بعدما رجع أبيل للخلف، وأيقن أن يونس سيحارب، ودعا له أن ينصره الله على القوم الذين لم يعلموا طريق الحق بتاتًا، تقدم القاسم إليه وعدد من القادة والجنود، ثم بدأ القاسم حديثه وقال:

آمل أن يكون الاستسلام هو قرارك أيها الفتى؟

إبتسم له وقال: لماذا؟

لأنك لا تمتلك شيئًا، جميع الجنود هنا خلفي، ولم يبقَ إلا هذا القائد العنيد الذي من المحتمل أن يقتل الآن على يدي.

غضب القائد لما قاله القاسم، وأمسك بسيفه بقوة، حتى أخبره يونس أن يهدئ من غضبه، فتعجب أبو عُبيدة من هدوئه، ثم قال: ماذا تريد أيها القاسم؟

قال القاسم: أريد كل شيء.

قال يونس بعد أن نزل إلى السلم ثلاثة خطوات بمفرده ممسكًا بسيفه خلفه: حسنًا.

الكل مترقب هذا المشهد في ذهول، ماذا يفعل هذا الفتى، هل استسلم بكل سهولة؟ تعجب القاسم من رد فعله، ثم نزل من على فيله وجميع القادة خلفه، ثم تقدم خطوه أمامه وقال: هذا جيد لك.

قال له : لكنَّ لي شرطًا!

قال القاسم له: ما هو؟

أمسك سيفه بقبضة يده أمامه مثل ما تعلم من عُبيدة، وقال بكل غضب: عليك أن تتخطاني أولًا.

نظر القاسم إلى سيفه باندهاش كبير مثل القادة، وعرف أنه سيقتل بحركة واحدة، في الحال هو وجميع القادة، ونظر إلى توفان الذي لم يخبره شيئا وأخفى ذلك عنه، ولم يفهم كيف جاء هذا السيف إلى هنا في يده، ارتبك كل من كان يقف أمام يونس، ثم تراجعوا إلى الخلف، وكان القاسم أولهم، هذا المشهد يكفي لفرار أكثر من نصف الجنود خلفه وبعض القادة، أمر يونس في الحال بجنود أبو عُبيدة أن يضعوا قادة الجيش في السجن إلى غير رجعة، أما القاسم الذي تقدم إليه ووقف ينظر في عينيه قائلا:

أما أنت فسأجعلك عبرة لكل من ظلم، لتذهب بعيدًا في الصحراء، وتموت جوعًا، وتشعر بما كان يشعر به الناس.

ثم نظر إلى القائد الذي فرح مبتهجًا بما رأى وقال له: هو لك الآن، خذه

بعيدًا، بعيدًا عن المدينة، بعيدًا عن البشر، بعيدًا عن الحياة يا صديقي.

فى هذه اللحظة بدأ القاسم يرجوه أن لا يفعل هذا، وسيكون خادمًا له مطيعًا، لم يستمع إليه، وتقدم إلى سلم القصر يمسك بسيفه منتصرًا دون قتال، في وسط تهليل أهل المدينة التي اهتز لها القصر، شاكرين ما فعله من أجلهم، حتى ازدادت شعبيته أكثر، ونال إعجاب كثير منهم، لم ينتظر القائد كثيرًا وفعل ما قاله يونس، وأخذ القاسم وألقى به في عربته ومعه جنديان، بعد ما فرَّ جميع جنوده وقادته، وانطلق خارج أسوار المدينة متجهًا إلى صحراء القِرش (صحراء كبيرة بها كل أنواع المخاطر، وقليل من ينجو منها).

***

بعد أن دخل يونس ساحة القصر، كان توفان ينتظره واقفًا، كان توفان يظن أن هذا الملك مثل الملوك السابقين الذين يحبون الذهب، لم يكن يتوقع كل ما حدث، ففكر أنه يجب أن يكون أقوى وأذكى منه، وأدرك أنه يجب التقرب إليه ليعلم بم يفكر، فوقف ناظرًا إليه، وقال: هل صدقتني يا مولاي؟

قال بكل ثقة: نعم صدقتك هذه المرة فقط.

فذهب توفان غاضبًا لأنه لم يثق فيه بسهولة، وعلم جيدًا أنه فتى ذكي، ويجب التعامل معه بطريقه أخرى.

***

فكر معي الآن يا أخي، لوصولك لهذه الصفحات وإدراكك لكلماتي، فأنت الآن مثل أخي وأكثر، تحدث معي، من الذي يمنع شخصًا أن يكون

صالحًا في ظل أحداث العالم المخادعة، هل هي بيئته، أظن لا، أم أنه هكذا منذ ولادته، أعتقد هذا أيضًا لا، أم أن السبب الأكبر المجتمع الذي حوله، ربما يكون هذا أكبر الأسباب المؤذية نفسيًا لتكوين شخصية سيئة وحاقدة وكارهة كل شيء، ولكن أريد أن أقول لك أيضًا أمرًا مهمًّا، ربما ينفعك في وقت لاحق، ليس سيئًا بمعنى أن تكون ظالمًا فقط، فكل ما انبعث من داخلك، من تصرفات وأفعال وحديث سيئ، فستكون فردًا بلا معنى، وإن مات قلبك مات شعورك، وإن مات شعورك، ماتت إنسانيتك للأبد، فتذكر هذا في وقت ما.

***

اقترب القائد (أبو عُبيدة) بعربته المنطلقة بأقصى سرعتها، إلى الصحراء، وقد أنزل القاسم منها ليلًا، فزاد خوفه وأيقن الموت والهلاك، وتركه ذاهبًا وهو يرجوه أن يرجعه، لم يسمع منه أي شيء وتركه وحيدًا وسط الصحراء، ثم ذهب إلى القصر يخبر يونس في غرفته بأنه فعل ما قال له، وأخبره أيضًا بأنه سعيد بما فعله وأنه شجاع، ولم يكن يتوقع هذا منه، واتضح أيضًا أن الاثنين لهم نفس الأهداف فأعجب بأبي عُبيدة كثيرًا، وانصرف القائد من غرفته بعد أن صافحه مجددًا، وجلس بمفرده في غرفته يكتب ويسجل كل الأحداث التي حدثت هنا، على قطعة من القماش وقلم قديم، ظل يكتب ويتذكر وجه شمس التي اشتاق إليها، وتذكر عُبيدة وتعلمه بالسيف معه، فقام يبدل ملابسه، بملابس قديمة متسخة ليكون الأمر مقنعًا أكثر، وقد طلب من أبيل العربة قبل نزوله، وقد جهزها أبيل في لحظات أمام باب القصر الخلفي

حتى لا يراه أحد من الخدم، وانطلق إلى بيت عُبيدة مجددًا، وتحدثا عما حدث هذه الليلة، وبعد حديث قصير بينهم، أحضر عُبيدة السيفان والأخشاب والرأس القطنية، ليعلم يونس مرة أخرى منه فنون القتال، ذهب هذه المرة بحماس كبير حتى يتعلم جيدًا، ثم انطلق الاثنان معًا إلى المكان نفسه، وأشعل عُبيدة النار في الأخشاب التي أحضرها، وقبل بدء القتال بينهم، نظر عُبيدة بجانب أرضه، رأى شمس تقف وحيدة تنظر إلى الصحراء، والتفتت إلى الأخشاب المشتعلة فاتجهت إليها، فقابلها عُبيدة، فسألته عما يفعله في هذا الوقت، فأخبرها بأنه يعلم يونس فنون القتال، أقبلت عليه ورحبت به قائلة: أهلًا بك يا يونس، كيف حالك؟

قال بابتسامة أطلت من وجهه: بخير يا شمس، كيف أنت؟

أنا بخير أيضًا.

فقال عُبيدة لشمس: ماذا تفعلين الآن يا شمس في الليل؟

قالت بعدما جلست بجانب الأخشاب المشتعلة: لا شيء، كنت أستنشق الهواء فحسب.

قال يونس بعدما جلس أمام الأخشاب أمامها وهي تنظر إليه: ولماذا في هذا الوقت؟

قالت:

ربما أحب الهدوء، أحب جلوسي أحيانا بمفردي لا أعلم لماذا، بعيدًا عن الناس والمدينة، ربما يرتاح قلبي هكذا.

قال يونس: أنا أيضًا كنت أفعل هذا في عالمي، كنت أحب الجلوس بمفردي كثيرًا، فوق سطح بيتي بأوراقي وقلمي لأكتب كل ما يأتي في خاطري.

قالت شمس: وماذا كنت تكتب ؟

قال: لم أتذكر ما كتبته، ولكن أتذكر كتاباتي، لي فتاة أشتاق إليها، ربما تأتي في وقت ما.

قالت بابتسامة: أنت عاشق اذن؟

قال: نعم، كنت عاشقا في خيالي فقط.

قالت: نعم فهمت، وما مواصفات التي كانت في خيالك؟

نظر في عينها نظرة طويلة وقال: شعرها أسود طويل مائل إلى الجانبين، وأعينها جذابة، من ينظر إليها يأتي إلى عالم لم يأت إليه من قبل، كان جمال روحها فائقا، وابتسم لها وأكمل، وعندما أجلس معها فقط هذا يكفي لسعادة قلبي.

أخجلها بحديثه عنها، كان يصفها هي بكل تفاصيلها ففهمت هذا، وابتسمت له، وظلت صامتة، حتى قاطعها عُبيدة وقال:

أنت شاعر في عالمك إذن؟

ضحك الثلاثة كثيرًا، وظلت شمس تنظر إليه، ثم قالت: هل بحثت عن شيء بخصوص رجوعك لعالمك؟

قال: لا لم أعرف شيئا حتى الآن.

قال له: إذن، نذهب إلى الملك ربما يساعدك؟

ارتبك وقال: أظن إنه لم يعرف شيئًا، وربما لم يسمعنا من الأساس.

قالت بإصرار: لا، لا تيأس، ربما في هذا سر وهو يعلمه، هو شاب مثلكم، وما فعله حتى الآن، ومساعدته لي، يدل على إنه إنسان جيد، وربما يجد لك حلًّا.

قال: نعم ربما.

قالت: إنك تشبه كثيرًا، لك ملامحه.

قال يونس بتعجب: حقًا؟

قال عبُيدة: نعم.

قال ليغير مسار الحديث: سمعت أيضًا أن الناس هنا قد أحببته كثيرًا بعد موقفه من القاسم.

قال عُبيدة: نعم، وشمس أيضًا.

ثم قالت شمس لعُبيدة: نعم أحببته، لمساعدته في رد أرضي لي، فلن أنسى هذا الجَميل له.

قال يونس: ألم تحبي من قبل؟

قالت سارحة بأنظارها إلى الصحراء: لا لم أحب في حياتي، كنت أحب فقط أبي الذي غادرنا في السنوات الماضية، وبقي لي أمى وأصدقائي فقط.

صمت بعد تذكره لأبيه وأمه اللذين لم يرهما، وتذكر عم إدريس الذي كان أقرب له من كل شيء، وحزن عليه كثيرًا، وقام واقفًا يتمشي بخطواته أمام الصحراء، وقف أمامها في شرود، حتى قالت شمس لعُبيدة، ربما تذكر شيئًا يحزنه، وقفت هي الأخرى، واتجهت إليه تقف خلفه، وقالت: لم أقصد شيئًا يزعجك يا يونس.

قال: لا عليكِ يا شمس، فكل من أحببتهم لم أرهم، حتى أبي وأمي.

قالت: لماذا، لم يأتوا إليك مرة واحدة؟

استدار إليها وقال: لا، لم أرهم قط، كل ما أعرفه أنهم ماتوا فقط.

قالت: ربما في هذا سر أيضًا، وأنت لا تعلمه؟

قال بشرود: نعم، ربما.

ثم قامت بتغير مسار الحديث، وقالت: ولماذا تتعلم المبارزة أيها الفارس؟

قال لها: لأحارب كل أعدائي أيتها الأميرة.

ابتسمت له عندما وصفها بالأميرة وقالت:

حسنا، هيا لتتعلم، وسأكون الحكم بينكما، هيا.

ليقول عُبيدة بصوت عالٍ: هيا يا يونس، أريد أن أرى مهاراتك هذه المرة.

قال: حسنا يا عُبيدة، سنرى هذا معًا.

اقترب ومعه شمس إلى عُبيدة، وقالت شمس وهى تقف بجوارهما:

وسأحكم بينكما، هيا استعدا.

بدأت المبارزة بينهم، وتصدى عدة مرات لهجوم عُبيدة عليه، وبدأ بالهجوم عليه أيضًا، واشتدت المعركة بينهما، تفوق عليه عُبيدة في المرة الأولى وأنزل سيفه أرضا، وأخبره أن ينتبه أكثر، فأخذ سيفه من الأرض، وفهم ما قاله، وبدأ من جديد، تقدم يونس بالهجوم عليه وتصدى عُبيدة بسيفه، حتى فوجئ عُبيدة بسيفه أرضا بحركة قوية منه، ثم ابتسم له وأخبره أن ينتبه هو الآخر، وأخبرتهم شمس أنهما متعادلان، وإنها ترى أن يونس يتقن المبارزة مثل عُبيدة، حتى انتهي عُبيدة من تعليم يونس اليوم، وأخبره عند مغادرتها إنه أفضل من المرة السابقه كثيرا، وأخبرته شمس بأنه سيكون أفضل في المرة القادمة، فشكر عُبيدة لما يفعله معه، ولتعليمه، وشكر شمس لمساعدتها، وقبل ذهابه عنهما، وعدهم بأن يلتقي بهم مرة أخرى، ثم غادر بعربته، ثم قالت شمس لعُبيدة قبل ذهابهم إلى منازلهم: هذا الفتى غريب يا عُبيدة!

قال عُبيدة وهو ينظر إلى عربة يونس وهو ينطلق:

نعم، يونس هكذا حقًا، لأنه ليس من عالمنا.

قالت شمس: ليس هذا فقط، أشعر من داخلي إنه مليء بالأسرار.

عُبيدة: ربما كذلك حقًّا، لكن أرى أنه فتى جيد، أحب أن أساعده كثيرًا.

شمس: نعم إنه جيد للغاية.

قالتها وابتسمت سارحة، ثم نظر عُبيدة لها وقال: نعم أيتها الأميرة.

نظرت إليه مُضَيِّقةً عينيها وقالت: لقد سمعت حديثنا أيها اللئيم؟

ضحك عُبيدة وقال لها: نعم، لم أمنع أذني من سماعكم.

وضحك الاثنان معًا، وغادر كل منهما إلى بيته.

***

في اليوم التالي، استيقظت شمس من نومها، بعد نوم عميق سبقه تفكير طويل ليلًا في أمر يونس، وعن وصفه لها بالفتاة التي كان يعشقها في خياله، وابتسمت لنفسها أمام المرآة، كانت أول مرة ذهنها يتعلق بشخص، لم تشعر من قبل مثلما تشعر الآن، لم ينبض قلبها لأحد طوال عمرها، كانت مجبرة أن تكون فتاة قوية بجانب والدتها المسنة بعد وفاة والدها، ولم يأتِ لها شاب مناسب في هذه المدينة، وعندما قابلت يونس في أول لقاء بينهما، لم يتمالك قلبها كثيرًا، وكلما تتذكره، كانت تحاول أن تبعد هذه الأفكار عن ذهنها، حتى استسلم قلبها ولم يعد يتحمل الاشتياق إليه، وقالت محدثة نفسها أمام المرآة: لا أظن إنه يقصدني بوصفه لهذه الفتاة، لكن كان ينظر إلى عيني بدقة، أو ربما أنا، لا أعلم، وهو ليس من عالمنا، سأقف بجانبه فقط ليرجع إلى عالمه، ولا شيء آخر.

بعد ذلك، خرجت شمس من غرفتها، تجهز الإفطار لوالدتها، ثم نزلت إلى أرضها، وقابلت أصدقاءها، يمنى وهديل، اللتين يسكنان في البيت المجاور لها، وبعد القليل من العمل في الأرض، جلس الثلاثة، وتحدثن معًا، واتجه مسار الحديث إلى الليلة المسبقة، وما يفعله عُبيدة معه من تعليمه بالسيف، وبعد قليل من الصمت من شمس، بدأ الحديث عن يونس وكل ما تعرفه عنه، فتعجبت صديقتها منها، لأنها لم تتكلم عن شخص هكذا

من قبل، وعرفوا منها كل تفاصيله التي وصفتها لهم، ثم قالت يمنى: من الواضح أنك أعجبت به كثيرًا يا شمس.

ردت عليها هديل: نعم يا يمنى، هذا واضح.

قالت شمس: لا، هو شخص غريب عن عالمنا فقط، وأحب أن أساعده.

ضحكت صديقتاها، فقالت شمس: هل هذا واضح حقًا؟

ضحكتا أكثر عندما سمعتا ذلك، وأخبرتها يمنى برأسها بنعم، حتى تضايق وجه شمس، وقالت: لن أتحدث معكم ثانيًا.

قالت هديل: حسنًا، لا عليك، سنتحدث في شيء آخر.

قالت يمنى: وما الذي جاء به إلى هنا؟

قالت شمس: لا أعلم كيف جاء، وهو لا يعلم أيضًا.

قالت يمنى: أمر غريب حقًا!

فقالت هديل وعلى وجهها ضحكة: مثل عُبيدة، وأكملت: عُبيدة العاشق.

ثم قالت شمس ليمنى: نعم إنه يحبك كثيرًا.

قالت يمنى: أعلم ذلك، وأكملت قائله: لكن لم يحدثني مرة واحدة في هذا الأمر.

قالت شمس: نعم، إنه خجول جدًّا.

ردت عليها: نعم، هذه مشكلته.

قالت هديل: حسنًا يا شمس، نريد أن نرى يونس هذا؟

قالت: لم أعرف أين يعمل تحديدًا، ولكن قال عُبيدة لي، بأنه يعمل مع رجل في صناعة الدروع، ويسكن في منزله.

قالت يمنى: حسنًا من المفترض أن يكون قريبا من هنا، فكل صناع الدروع قريبون من قصر الملك.

قالت شمس: نعم هذا صحيح، وربما يأتي في وقت من الأوقات، لتتعرفوا عليه.

ثم انتهين من حديثهن وغادرن إلى بيوتهن بعد غروب الشمس.

وعند المساء، كان عُبيدة ينتظر يونس، مثلما قال له في المره السابقة، ظل ينتظر بضعة ساعات ولم يأتِ، حتى ذهب عُبيدة إلى الأرض الخاليه بسيفه، ربما جاء يونس، ولكن لم يأتِ، وتفاجأ بشمس وحدها، واقفة كأنها تنتظر شيئًا، وتعجبت من أن عُبيدة أتى بمفرده، ثم سألته في الحال عن يونس، أخبرها أنه لم يأتِ، وبدآ يقلقان، ظلا واقفين نصف ساعة، ولم يأتِ، ثم اقترح عُبيدة عليها أن يذهبوا إلى منزليهما ربما يأتي غدًا، ووافقته شمس وذهبت إلى بيتها، وظل عُبيدة ينتظره نصف ساعة أخرى، ولكن بلا جدوى، فذهب إلى بيته، مرت ثلاثة أيام على غيابه على عُبيدة وشمس، وفي الليلة الثالثة، بعد أن ذهب عُبيدة إلى الأرض الخالية، وبعد أن قابل شمس، أخبرته أن من الممكن أن يكون حدث له شيء لأنه غريب عن المدينة، ظلوا ينتظرونه ولم يأتِ أيضًا،

وبعد انتظار طويل أخبرها عُبيدة أنه سيذهب في الصباح الباكر إلى العاملين في صناعة الدروع ويسأل عنه، وافقته شمس في الحال، ثم أخبرها أن الوقت تأخر كثيرًا ويجب أن تذهب إلى بيتها فذهبت، وقف عُبيدة أمام الصحراء ينظر إليها، بعد أن أشعل الأخشاب لتنير له المكان، وقال:

أين أنت يا صديقي؟!

صحراء القرش

كانت خطواته ثقيلة من شده تعبه، يمشي ببطء شديد حتى نزل على ركبته، كانت الأيام الثلاثة كفيلة لموته حيًا، ولكن لم يشأ القدر أن تذهب روحه، كان منهكًا يشعر بالعطش والجوع، ربما يكون فراق روحه بعد لحظات معدودة، كان يزحف بيده بين الرمال في الصحراء، ولا يرى أمامه، كانت الشمس شديدة عليه، ويصيبه العرق من جسده من كل مكان، حتى أيقن الموت لا محالة، وعندما نظر بعينه إلى الأعلى، شاهد جبلًا صغيرًا له مدخل واحد ضيق، حاول أن يتقدم إليه بما تبقى منه من قوى، ولكن كان يعجز عن ذلك، حاول استرداد روحه مرة أخرى ليقاوم، ظل يمشي بخطواته البطيئة حتى اقترب من الجبل، لعل هناك أحدا يأتيه بشراب، ولكن من يعيش هنا في هذا المكان، حتمًا هذا مستحيل، كانت هذه هي محاولته الأخيرة، لعل أحدًا يأتي لمساعدته، عندما توقن من الموت، فإنك تفعل أي شيء، للبقاء حيًا، حتى اقترب أكثر من المدخل، وعندما وصل إليه بصعوبة، وقف مستندًا على جدرانه، يمشي بصعوبة خطوة خطوة، بدأ يسمع أصواتًا غريبة، ودخل الخوف قلبه، لم يفهم شيئًا منها، أيقن إنها هواجس قبل موته، فأخذ يرددها على لسانه، وعندما اقترب أكثر، ظل الصوت يعلو شيئًا فشيئًا، حتى أفاق من شروده فجأة، واقترب وسمع صوت شخص يردد هذه الكلمات، حتى أجبره الممر على الدخول شمالًا، وعندما اقترب، رأى غرفة مضيئه بالنور الأحمر، وكان هناك شخص يجلس أمام نار مشتعلة، يردد كلمات غريبة وغير

مفهومة، حاول أن ينظر إليه متخفيًا للرجل الجالس، ولكن كانت النار تغطي ملامحه جيدًا، ظل يدقق نظره بترقب، لتنخفض النار المشتعلة أمام الرجل وتتضح ملامحه ومظهره، كان جالسًا على كنبه عريضة، ويرتدي جلبابا أسود، وشالا يغطي شعره الطويل فوق رأسه، ويده اليسري عليها وشم على شكل عقرب، وكانت عينه اليسري لونها أحمر عكس عينه الأخرى، وقف القاسم في دهشه، منفتح العينين، ظل صامتًا متعجبًا في ذهول، كيف لهذا الرجل أن يظل حيًا حتى الآن، ينخلع عقله من رأسه من تساؤلات، لم يفهم كيف حدث ذلك، كان القاسم يدرك جيدًا من الذي في هذه الغرفة، حتى انتهي الرجل من كلماته، ونظر أمامه فجأة، في حركة سريعة برأسه، موجهًا عينه إلى القاسم، وقال: أراك من بداية يومك الأول في الصحراء أيها القاسم.

انتفض قلبه عندما سمع يردد اسمه، حتى ظهر رأسه إليه بعينيه الواسعتين، وقال: (أسنا).

عُبيده

بعد أن عرفت يونس وساعدني في المرة الأولى، أدركت أن هذا الشخص محب للناس، لم أحظَ بصديق طوال حياتي الماضية، إلا شمس ويمنى حبيبتي، وبعد أن توفي والدي ظللت وحيدًا، وبعد أن دخل عالمنا، أحببته كثيرًا، وأيقنت أنه سيكون صديقًا جيدًا لي، وإن كان عالمه به الكثير من الأشخاص مثله، فأتمنى أن يأخذني معه، لأحظى بأصدقاء مثله، وبعد غيابه لأربعة أيام، قلقت أنا وشمس عليه، خشينا أن يكون قد أصابه مكروه، وأستيقظت صباحًا لأبحث عنه في مكان عمله، كما أخبرني مسبقًا أنه يعمل في صناعة الدروع، وقبل أن اتجه إلى المكان قابلت شمسًا في أرضها، وأخبرتها أنني سأذهب الآن لأبحث عن يونس، ووافقتني الرأي، وأخبرتني أني سأجده حتمًا هناك، ثم ذهبت إلى المكان، وعندما وصلت، بدأت في السؤال عنه، ووصفه لكل من يعمل في صناعة الدروع، لكن لم أحد يخبرني بأنه التقى به، أو يعرفه من الأساس، بات الأمر عجيبًا لي، سألت مرات أخرى، لعل أحد يخبرني بشيء، أو ألتقي بالرجل الذي يعمل معه ويجلس في منزله، ولكن بلا جدوى، بات الأمر غير طبيعي، أين هذا الفتى، وأين ذهب، لا أدري، وعندما سألت رجلًا آخر، أخبرني بعصبية، أن العاملين هنا من المدينة، ولم يعمل هنا أحد غريب، وعندما خرجت من المكان، رأيت عددًا كبيرًا من أفراد الجيش، يهتفون باسم الملك، عاش الملك، عاش الملك، ذهبت خلفهم لأري ما يحدث، وكلما تقدموا خطوة، زاد عددهم أكثر، أصبح أكثر من

نصف الجيش يحيي الملك، حتى الذين كانوا غير مؤيدين له، تعجبت من هذا الأمر كثيرًا، ماذا يحدث، لم أفهم، وماذا فعل الملك، التقيت بشمس ويمنى وهديل وسط الزحام الكبير، وعندما كنت أهتف معهم، أخبرتها أيضًا أنني لم أجده، ولم يتعرف عليه أحد بتاتًا، تضايقت عندما سمعت كلامي الأخير، وأخبرتني أنه ربما يأتي يومًا ما، أو ربما يكون وسط هذا الزحام، لنبدأ البحث عنه أنا وشمس بين الناس، لعله هنا في مكان ما، ولكن لم نجده أيضًا، ثم وصل الجنود الطوال القامة والناس، في مشهد عجيب، كان المنظر يدل على الحب والود بينهم، تعجبت شمس أيضًا وأخبرتني بأنها لم تفهم ما يحدث، وأخبرتها أنني أيضًا لم أفهم شيئًا، وعندما وصل الجنود أمام قصر الملك، وفتحت البوابة القصر ودخل بعض الجنود، وفي المقدمة القائد (أبو عُبيدة)، الذي رفع سيفه يحيي الملك قبل ظهوره، وعندما فتحت البوابة الداخلية للقصر، تقدم الملك بخطواته الثابتة، ليقف أمام الجنود برأسه مرفوعة، لم أفهم كيف تغير الحال إلى ذلك، ولكن عندما رأيت الملك، وأنا قريب من البوابة الحديدية المفتوحة، كان من الواضح الشبه الكبير بين يونس وهذا الملك، أو من الممكن أن يكون هو، لكن كيف ذلك، وعندما أخذ سيفه من جانب خصره، ورفعه لأعلي محيًا لجنوده، تلاقت عيني بعينه في جزء من الثانية، ونظر لي مبتسمًا في فرح، كاد يصيبني الجنون بعد ذلك، إنه يونس نعم، أعرف هذه النظرة جدًا، لست مجنونًا، عندما قلت ذلك في خاطرى، ولكن كيف يكون ملكًا، ولماذا يخفي هذا الأمر عني وعن شمس، حتمًا في الأمر سر خفي، وعندما عاد الملك إلى الداخل، ذهبت أنا وشمس ويمنى وهديل، ورأسي مشتت، لم أخبرهما بشيء، ربما لم يكن ذلك صحيحًا، وهذا تشابه فقط

بينهما، وحتمًا سأعرف ذلك، صرت مع شمس وأصدقائها في اتجاه بيتهما، بعد أن شاهدنا احتفالات أهالي المدينة التي لم أرها كثيرًا، حقًا كنت سعيدا برغم تفكيرى الزائد في أمر يونس، كان بين الناس بهجة وفرحة، وعندما وجدت أحد الناس مسرورًا، فهمت ما يجري حولي، لأسعد حقًا من كل قلبي أنا وشمس وأصدقاؤها، عرفت من هذا الرجل الذي سألته، أن الملك زاد من أجر العاملين في كل المجالات، وأعطى قياده الجيش بأكملها ل (أبو عُبيدة)، وفرض قانونا منصفا للمظلومين قبل أي شيء، ومن يخالفه سيسجن على حسب عقوبته، وزاد من ذهب الجيش، كي لا يطمعوا في شيء آخر، ثم بعد ذلك دعا إلى عبادة الله وحده، وألا تنحني رأس لأحد، حتى إن كان الملك نفسه، لم أشعر في حياتي بسعادة مثل الآن، كان أفضل يوم في حياتي، أتت أخيرًا روح هذه المدينة إلى مكانها، واكتملت فرحتي عندما أخبرت (يمنى) بحبي لها، كادت أن تقتلني لصمتي كل هذه السنين، ثم احتضنتها وسط الزحام، لأشعر بروحي تأتي إلى من مكان بعيد، بعد شوْق دام سنوات عديدة، لا أريد شيئًا بعد الآن، مدينة بحاكم عادل أتى، وأتى كل الخير بعد ذلك، وحب (يمنى) التي كنت أعشقها كثيرًا، أفتقد حقًا شيئًا واحد، هو يونس، الذي سأعرف الليلة من هو حقًا.

***

نعم أيها القاسم (أسنا).

ثم اتجه إليه بخطواته البطيئة، ليجلس قرب قدمه، مستنجدا به ليساعده، حتى أعطاه وعاء من الماء، فشرب الوعاء كاملا من شدة عطشه، ثم أفاق شيئًا

فشيئًا، وأعطاه أيضًا الخبز ليأكل، بعد لحظات أفاق من شروده وأدرك أين هو، وعندما رجع إلى وعيه كاملًا وقف مصدومًا أمامه، نظر إليه للحظات غير مصدق، ثم قال: كيف ما زلت حيًا حتى الآن؟

أشار بيده ليجلس بجانبه، وبعد أن جلس خائفًا قال:

لم أمت أيها القاسم، بعد ما عرف جنود الملك مكاني، كما أخبرتني، اختفيت وأتيت إلى هنا، وبعد ذلك نشر خبر موتي في المدينة، هذا فقط ما حدث، وبعد ذلك بقليل، علمت من صقري باختفاء الملك فجأة من القصر، ولم أدرك كيف حدث هذا، وظهرت مرة أخرى بعدما سخرت آلاف الجنود؛ لأحتل هذه المدينة بقوتي الهائلة، وعندما أدركت التوقيت المناسب لدخولي المدينة، أخذت الجنود، واتجهت في المقدمة، وعندما اقتربت من أسوارها، كان هناك حاجز خفي يمنعني من الدخول، استخدمت كل قوتي لكسر هذا الحاجز ولكن بلا فائدة، لم أفهم كيف يحدث هذا، ولكن هذا ما حدث، ثم رجعت إلى هنا، وعشت في هذا المكان، ثم جاء صقري يخبرني عن ملك جديد يدعى يونس، وشاهد صقري كل ما حدث معك ومع غيرك، ثم رأيتك في الصحراء في يومك الأول، وأبعدت عنك كل المخاطر، حتى تأتي إلى مكاني.

ثم قال القاسم بعد صمته مما سمعه: نعم، فهمت أنك مت عندما عرف الجنود مكانك.

ثم ابتسم له قائلا: لم أمت بهذه السهولة أيها القاسم.

حسنًا، هذا جيد يا صديقي، وبعدها احتضنه فرحًا بعودته.

ثم أخبره القاسم عن الفتى الذي جاء وأصبح ملكًا، وعن سيفه الذي لم يعرف من أين حصل عليه، وعن توفان الذي غدر به، وخانه للملك، وعن أبو عُبيدة، وعن كل شيء في هذه المدينة، ثم صمت (أسنا) للحظات، ثم قال:

أعتقد أن توفان ذكي، ولا يفعل هذا معك إلا لخطة في ذهنه، أو يكون مضطرًا لفعل هذا، أمَّا هذا الفتى، فلا يعرف شيئًا عن المدينة ولا يستخدم السيف جيدًا، كان صقري يراه من بعيد يتعلم استعماله فقط، أعتقد أن هزيمته ستكون سهلة للغاية، لكن أولًا نريد أن نفكر في خطة جيدة.

برغم أن (أسنا) له قدرات كبيرة على فعل كثير من الأشياء، فلا يمتلك مهارة التفكير في الأمور جيدًا، اقتنع القاسم بكلماته الأخيرة، وبدأ يفكر واقفًا أمام النار المشتعلة، في خطه تهزم هذا الفتى وسيفه، ثم قال: أولًا يلزمنا شخص يساعدنا من داخل القصر.

رد عليه قائلًا: يساعدنا في ماذا؟

قال القاسم: يساعدنا في أخذ السيف من الملك، ويخفيه في مكان ما، فهو ضعيف من دونه، وهذا يساعدنا أكثر في الانتصار عليه.

هز رأسه موافقًا فيما قاله، ثم قال: توفان سيفعل هذا.

رد عليه قائلا: من الممكن، نريد أن نخبره أولًا بذلك، ثم يأتينا الرد.

قال (أسنا):

حسنًا، خذ هذه الأوراق واكتب له هذه الرسالة.

أخذ القاسم الأوراق، وبدأ يكتب لتوفان ما يريد فعله، ثم بدا (أسنا) في إلقاء كلمات غير مفهومة، فاشتعلت النار فجأة إلى الأعلى أمامه، وبعد لحظات، دخل صقر أسود وحط على كتفه فجأة، ورأسه منحية له، ارتجف قلب القاسم في هذه اللحظة، ثم أخذ (أسنا) الرسالة بيده، ووضعها في فم الصقر، ثم بدأ يلقي نفس الكلمات، وذهب الصقر بجناحه مغادرًا المكان في لحظات.

كان في حجرته يفكر فيما يفعل، يريد خُطة لهزيمة هذا الفتى، اتجه خارج الغرفة، واتجه قرب باب غرفة الملك، واستمع لما يقال داخلها، وكان داخلها القائد أبو عُبيدة والملك، سمع القائد يشكره على كل ما فعله من أجل المدينة، ثم سمعه يقول بأنه لا يثق في أحد غيره، وقبل خروجهم بدقائق، ذهب توفان إلى غرفته حتى لا يلاحظه أحد، ودخل إلى غرفته جلس على كرسيه أمام شرفته، ليأتي الصقر سريعًا أمام النافذة، انخلع قلبه من جسده خوفًا منه، هب واقفًا صامتا ينظر إليه في ترقب شديد، وعندما اقترب منه ببطء، بدأ يحدث الصقر الذي صار ينظر إليه هو الآخر، كأنه إنسان يقف أمامه، يخبره بأنه يعرفه جيدًا، ثم اقترب منه أكثر، وقال بعينيه الواسعتين:

صقر (أسنا)!

مد يده وأخذ الرسالة من فم الصقر، في تعجب شديد، وقبل فتحها، بدأت تأتيه نفس تساؤلات القاسم عن (أسنا)، وكيف هو حي حتى الآن، وبعد أن غادر الصقر من النافذة، جلس على كرسيه ليقرأها، قد أخبره القاسم في الرسالة بأنه لم يمت حتى الآن، وأنه التقى من جديد بأسنا الذي

هرب السنوات الماضية ولم يمت كما يظن الناس، وفكر في خطة لهزيمة هذا الملك، ويجب أن يساعده حتى لا يغضب (أسنا) منه، ثم أخبره بأن يخفي سيف الملك، ليكون ضعيفًا عندما يأتي بجيشه الذي يسخره له (أسنا) ويحتل المدينة.

وقف حائرًا في تعجب، كيف يفعل هذا، وإن لم يفعل، من الممكن أن يأتيه (أسنا) بكل ما هو شر له، حتى عاد الصقر مرةً أخرى واقفًا مكانه، ينظر له بعينه، فهم تُوفان بأنه يريد ردًّا في الحال، وقف أمامه مرة أخرى، ثم أخذ ورقة وكتب عليها: حسنًا، سأفعل هذا في ثلاثة أيام.

ثم أخذ الورقة، ودسها في فم الصقر، وطار بعيدًا في سماء صحراء القرش.

جلس يونس على كرسيه يتخذ أنفاسه متعبًا، بعد عدة أيام استمرت الاجتماعات بين قيادات الجيش كافةً، لإقناعهم بما يريد فعله في هذه المدينة، كان الأغلبية يرفضون بشدة، وعندما ناقشه أبو عُبيدة في هذا الأمر وأقنعه بأنهم يريدون الذهب قبل أي شيءٍ، فأخبرهم يونس أنه يزيد من ذهبهم ومكافأتهم، فاقتنعوا حتى هتفوا من أجله في شوارع المدينة، أدرك يونس مؤخرا أن الذهب يسهل كل شيء، تعجب حقًا من قذارة هؤلاء الناس، حتى جاء في رأسه عُبيدة وشمس الذي غاب عنهم عدة أيام، وعندما أسند ظهره على كرسيه وأخذ أوراقه ليسجل بقلمه أحداث هذه المدينة، بدأ بتخيُّل وجه شمس الذي ينبض قلبه شوقا إليها، وعندما أمسك بقلمه وبدأ الكتابة، حاول الدخول إلى القصر متسللا بين الحراس، من أعلى سوره برشاقة جسده، مضى بين الحراس متخفيًا دون أن يراه أحد، وقفز إلى غرفة

الملك متخفيًا وراء نافذتها، نظر بعينيه ليشاهده جالسًا يكتب شيئًا لم يدركه، وقف عدة دقائق خلف النافذة بات الأمر طبيعيًا له، نعم هو ملك حقًا، لم يكن يونس الذي يعرفه، وبعدما مضي عدة دقائق أخرى وظل ينظر إليه وهو يكتب فقط، تأكد بأنه ليس هو، قرر الرجوع حتى لا يلاحظه أحد، وقبل أن يغادر رآه يقف واتجه نحو ملابسه ونزع ملابس الملك وبدلها بملابس يونس الذي يعرفها، نفتحت عيناه بشده في تعجب، وقال في نفسه، نعم إنه هو، نعم هو، أعرف هذه الملابس جيدًا، لماذا يفعل هكذا، ثم سمعه يقول: سآتي إليك يا صديقي، لم يمتلك عُبيدة من الصبر شيئًا، فدخل داخل الغرفة وقال: ها قد أتى صديقك يا يونس.

تفاجئ بحضور عُبيدة خلفه، لم يمتلك وسيلة تبرير له عما كان يفعله، كان يقف أمامه بثبات وثقة، ظل يونس يطالعه ولم يتحدث، ثم قال أخيرًا:

كيف دخلت إلى هنا يا عُبيدة؟

قال عُبيدة وهو ينظر إليه: لا عليك من هذا، أريد أن أعرف لماذا تفعل هكذا معنا، أريد أن أعرف حقيقتك؟

لاحظ إصرار عُبيدة وحديثه الجاد، ثم قال: حسنًا، اجلس هنا، لتعرف كل شيء.

تحرك عُبيدة وجلس على كرسي يونس، الذي كان جالسا عليه يكتب كتاباته، ليطلع عما كان يكتبه بين الأوراق، يقلب صفحاتها، حتى أتى اسمه هو وشمس، ثم بدأ في قرأتها بصوت مسموع:

بعد دخولي للمدينة التي لم أعرف عنها شيء، وصرت ملكًا فيها دون أن أعرف كيف حدث هذا، كان فيها كثير من الأشخاص الظالمين الذين كانوا يريدون أن يكونوا أكثر قسوة عن غيرهم، وبعد مرور عدة أيام، التقيت بصديق حقيقي يسمي عُبيدة، كُنت قد أحببته في المرة الأولى الذي ساعدته فيها، وصار صديقي أكثر عندما بدأ في تعليمي المبارزة بالسيف، وعندما عرفت شمسًا، زهرة هذه المدينة التي فتح قلبي لها سريعًا دون تردد، صار كل شيء جميلًا .

توقف عُبيدة عن القراءة، عندما انتهت الكلمات، وكان يونس يقف أمامه وكان مستمعًا له، فرح عُبيدة من داخله ولكن لم يتبين هذا على وجهه، كان ذهنه مليئًا بالتساؤلات، قال بعد تعجب كبير منه:

نعم، وأنا قد أحببتك كثيرًا ولكن، لماذا تفعل هكذا، لماذا لم تخبرني، وكيف صرت ملكًا هنا؟

قال بعد صمت كبير: سأخبرك حقًا بكل شيءٍ، لكن أولًا عاهدني بأنك لم تخبر شمس.

قال في دهشة: لماذا؟ إنني قد أحببتها، وأريد أن تحبني كما أنا، يونس وليس الملك، لم أعشق في حياتي أبدًا، ولا أريد أن أفشل في ذلك.

صمت عُبيدة للحظات، ثم ابتسم له قائلا: ها قد وقعت أيها الملك.

قال: نعم هذا ما حدث.

قال عُبيدة: أخبرني بالحقيقة ولا تكذب هذه المرة.

اتجه له قائلا: حسنا، سأخبرك.

أخبره بكل شيء، منذ بداية يومه الأول في العمل في مكتبه عم إدريس، وحصوله على المذكرات المجهولة بعد وفاته، واللغز الذي كان في المذكرات الذي لم يفلح عم إدريس في فكه، وفضوله الشديد في معرفه هذا اللغز بعد أن اجتاحت الوحدة حياته، والقصر المهجور الذي في غرفته باب في أسفله، ونزل بها وأغلقت عليه وكاد أن يموت، لولا أن بدأ في فك اللغز شيئًا فشيئا، ثم رمته هذه الغرفة إلى الصحراء ليأتي إلى هنا، وعندما نظر الناس له وهم يعبدون الشجرة الكبيرة التي في منتصف المدينة، صار ملكًا ولم يفهم حتى الآن كيف، وقد أخبره أنه عندما ساعده في المرة الأولى، كان يريد أن يعرف طبيعة هذه المدينة، وعندما اتخذه صديقًا له هو وشمس، كان يحب الجلوس معهم دون أن يعرفوا شيئًا أخر، كان يريد إظهار الجزء الحقيقي لشخصيته، وليست المزيفة.

صمت عُبيدة لما استمع إليه، وبات متعجبًا غير مصدق، ثم قال بعد لحظات:

ماذا كان يقول اللغز؟

أخذ المذكرات التي لم يفتحها منذ وصوله إلى المدينة، ثم فتحها قائلا

رجل من النسل، يأتي إلى مكانه، ويذهب إلى عنوانه، بإرادته!

صمت عُبيدة يفكر في اللغز، وهب واقفًا يفكر، ثم قال:

أخبرتني أن إدريس حاول ولم يفلح، حقًا؟

رد برأسه موافقًا، ثم أكمل الآخر:

إذن لم يكن من النسل، لذلك أنت هنا، إن لم تكن من نسل صاحب المذكرات، فلم تكن ستأتي إلى هنا.

رد عليه قائلا: حسنًا، وكيف حدث هذا؟

قال عُبيدة بعد لحظات تفكير: أخبرتني أيضًا، أنك لم تر والديك، ولم يخبرك عنهما إدريس؟

يونس: نعم.

ثم وقف عُبيدة بين الصورتين المعلقتين على الحائط، وأشار بيده على الملك الذي كان في المدينة قبل يونس، وقال: هذا الملك، كان صاحب المذكرات التي بيدك؟

رد عليه قائلا بعد أن وقف بجانب عُبيدة ليفكر معه: نعم.

وأشار عُبيدة بيده إلى الصورة الأخرى وقال: إذن من هذا؟

رد عليه قائلا: أخبرني الخادم الذي هنا، بأنه ابنه، وكان يصفه دائما بالإبن العار.

نظر إليه عُبيدة في تعجب، ثم أكمل الآخر: لأنه تزوج خادمة، ليست بمستواه.

نظر عُبيدة إليه مفكرًا، ثم فتحت عين يونس في دهشة، قال: تزوج فتاة في القرية، لكن هذا حدث قديما قبل سنوات طويلة.

ثم قال عُبيدة: رُبَّما أنجبت منه ولدًا، قد يكون أباك.

رد عليه في لهفة، قائلًا:

نعم، هذا أقرب الظن، ولكن أين هو، لماذا اختفي عني، لماذا لم يخبرني عم إدريس؟

ثم قال عُبيدة، بعد أن تجمعت كل الخيوط:

ربما لم يعرف إدريس شيئًا.

رد قائلا: لكن كيف، وهو من رباني منذ الصغر.

قال عُبيدة: لا أعرف، من الممكن أن هنا سرًّا أيضًا.

أسند يونس ظهره متعبًا على كرسيه، بعد أن تشتت ذهنه من التفكير، جاء عُبيدة وجلس بجانبه يواسيه، وقال:

لا عليك يا أخي، خيراً بأذن الله.

لم يرد عليه بوجه الذي قد هم بالحزن، ثم قال الأخير:

فكر الآن فيما أنت عليه وفيما فعلته هنا لكل أهالي المدينة أيها الملك.

كلمات عُبيدة الأخيرة قد أعطته مزيدًا من الحماس اتجاه هذا العالم الجديد، احتضنه وقال: سأفعل كل شيء من أجلكم، وأنت ستكون بجانبي وبجانب القائد النبيل.

سعد وجه عُبيدة عندما سمع كلماته، وابتسم له فرحًا وقال: سأفعل هذا من أجلك يا صديقي، أنت وكل أهل المدينة.

ثم قال بعد أن احتضنه:

حسنًا، ستأتي باكرًا في الصباح، تكون بقربي فيما أفعل أيها الفارس.

ابتسم له عُبيدة وقال: حسنًا، سأفعل ذلك يا أخي.

ثم أوصله إلى خارج القصر، وقبل أن يودعه، أكد عليه بأن لا يخبر أحدًا، وخصوصًا شمس، فخرج ووعده أن الأمر سيبقي سرًا بينهما، وبعد أن ذهب عُبيدة سعيدًا بعد ملاقاة يونس، التقى بشمس التي كانت تقف وحيدة قريبة من أرضها، وسألته فور لقائهما عن يونس، الذي غاب عنها عدة أيام، صمت عُبيدة مفكرًا قبل أن يخبرها عنه، ثم أخبرها بأنه التقى به حديثًا وكان متعبًا من عمله، فكان يأخذ قسطًا من الراحة لعدة أيام، وجلس معه حتى اطمأن عليه، تضايق وجهه شمس ثم أخبرته بأن بإمكانها أن تراه، ثم أخبرها عُبيدة بأنه لا داعي لذلك، وسيلتقي به غدًا هنا، ابتسم وجهها في سعادة، لاحظ عُبيدة حبها له، كما هو يحبها، ثم تفرق كل منهم إلى منزله، وساد الهدوء في المدينة.

***

في الصباح استيقظ على صوت أبيل الذي أخبره مستغربًا أن شخصًا يدعى عُبيدة ينتظره في ساحة القصر، ثم أخبره بعد أن أفاق شيئا فشيئا، بأنه صديقه الذي علمه مبارزة السيف في الأيام الماضية، ثم أخبره أيضًا بأنه يعرف كل شيء عنه، وسيكون بجانبه هو والقائد أبو عُبيدة، لم يتعجب أبيل من أمر هذا الشاب الذي كان يعرف عنه القليل، ثم حكى يونس له كل شيء، منذ أول لقاء بينهما حتى حديثهم مساءً، وفرح أبيل قليلًا بأـن كثيرًا

من الشبان لم يستسلموا إلى طريق الظلم، وبعد أن أخبره، اتجه إلى الأسفل ليقابله ومعه أبيل، واستقبله بكل سرور، ليأتي القائد النبيل وينضم إليهم بعد أن حياه، وأخبره بأن عُبيدة سيكون معهم في الجيش، وأنه يعرفه جيدًا وفارس عظيم، ثم أخبره أبو عُبيدة أنه يعرفه، ولا فرد في المدينة لا يعرف سره، فرحب به بينهم، وأخذه أبيل ليبدل ملابسه القديمة بملابس الفرسان، ابتسم وجهه عندما رأى نفسه في المرآة بعد أن غير ملابسه، وعندما وقف بينهم في ساحة القصر ضحك وجهه يونس وفرح أيضًا في ذات الوقت، ثم اجتمع الرباعي في غرفة الاجتماعات وناقشوا بعض أمور المدينة، مثل تعليم دين الله بين الناس، وتعليم الأطفال والنساء، ومساعدة المحتاجين من أجل تحقيق العدل المساواة، ثم أتت فكرة إلى عُبيدة وهي تعليم الأطفال وهو من سيفعل ذلك، ثم أخبرهم أبيل بأنه سيعلم الأمور التربوية والدينية للناس، تحمس لهم وأخبرهم بأنه سيبدأ ذلك من غد، وأخيرًا كل منهم قد غادر، وقبل مغادرة عُبيدة سأله يونس عن شمس، أخبره بأنه قال لها إنك متعب من العمل وستأتي الليلة، ووافقه في الحال.

وفي الليل ذهب إلى منزل عُبيدة، وانطلقا معًا إلى المكان الذي يعلمه فيه المبارزة، وكانت شمس تنتظرهم، فرحَ وجهها عندما رأيت يونس هذه المرة، وتقدمت إليه في لهفة، تسأله عن أحواله، ثم طمأنها، وأخبرها بما قاله عُبيدة بأنه كان متعبًا من العمل، وبعد صمت بينهم، طالت نظرة شمس هذه المرة له، لم تقل شيئا لكن قلبها كان يتحدث بصوت عالٍ، قائلا إنه مشتاق، مشتاق كثيرًا، أردك ما تريد قوله دون كلام، وقال لها بعد أن ذهب عُبيدة ليشعل الأخشاب، وقد طالت نظرته لها:

عندما طال غيابي عنك، أدركت أن هناك شيئًا مفقودًا.

كأن قلبها قد طار سعادةً بهذه الكلمات، كانت تشتاق إليه أكثر مما يتخيل، ابتسم وجها كثيرًا وصارت أجمل مما كانت عليه، ظلت صامتة في سعادة ولم تقل شيئا، قال عُبيدة بصوت عالٍ: هيا يا لنبدأ.

ابتسم يونس له، وضحكت شمس كثيرًا، وقال:

هيا أيتها الأميرة لتحكمي بيننا.

انطلقوا معًا، وعندما سارت بجانبه، كان قلبها ينطق فرحًا تفكر في كل كلمة سمعتها منه، ثم فرحت أكثر وأكثر.

كل منهم أمسك بسيفه، وكانت تشاهدهم، بدأت المعركة القوية بينهم، وهاجم كل منهما الآخر بقوه أكثر، كان هذه المرة قد تعلم المبارزة حقًا، وقد لاحظ عُبيدة ذلك، وفي حركة قوية من يونس أوقع سيف عُبيدة أرضًا وكان النصر له في دهشة من عُبيدة، الذي أخبره أن يمسك بسيفه جيدًا هذه المرة، التقط عُبيدة سيفه مرة أخرى وبدآ من جديد، وانتصر يونس مرة أخرى عليه وأوقع سيفه أرضًا، صاح صوت شمس بفوزه فرحًا، ثم وقف عُبيدة ينظر إليه وعلى وجهه ابتسامة محب لصديقه وقال: الآن صرت فارسًا حقيقيًّا يا صديقي.

***

مع مرور بضعة أيام في المدينة، صار يونس وأبيل في الصباح يعلمون أهل المدينة عبادة الله، من صلاة وقيم ومبادئ دينية، وكثر عددهم شيئا

فشيئا إلى معرفة دين الله، من نساء وشباب وأطفال المدينة، ومعرفة كل ما حرمه الله مما لا ينبغي فعله، من شرب خمر وخيانة وكذب، وسعد يونس وأبيل بما يفعلونه، وكان عُبيدة يعلم بعض الأطفال القراءة والكتابة، وتكاثر عددهم أيضًا في كل مرحلة، وفي الجهة المقابلة كان القائد أبو عُبيدة يقوي ويعزز قدرات الجيش على مواجهة التحديات الصعبة، كان لا يثق فيهم الثقة الكاملة، ولكن كل شيء يصير من أجل العملات الذهبية، وفي الليل كان يقضي يونس وقته مع عُبيدة وشمس، اللذين ارتاح قلبه عندما يراهما فقط، يتحدثون معًا عن تقدم أهل المدينة في تعلمهم وتقدمهم في عملهم، كان يريد البوح بكل ما يريح قلبه لشمس، ويعترف بحبه لها كثيرًا، ولكن كان مدركًا إنه ليس الوقت المناسب له، وكان يريد الاعتراف بأنه ملك المدينة، ولكن لم يشأ الآن، كان كل شيء على ما يرام، حتى رجع في ليلة، بعد عودته من لقاء شمس وعُبيدة، والتقى بأبيل في ساحة القصر ممسكًا بكتاب المدينة (مدينة الباب) وأخبره بشيء عجيب، وقال: قد علمت كل قوانين المدينة، ونفذتها كلها.

قال يونس: نعم هذا صحيح.

قال أبيل وهو ينظر إلى الكتاب في غرابة: أعلم ذلك، ولكن هناك شيئًا غريبًا، لم يضئ الكتاب أبدًا.

تعجب من قوله، وقال: كيف؟ لم أفهم!

قال أبيل: من المتوقع عندما تعلم قوانين الكتاب وتنفذها، يضيء الكتاب وتذهب إلى عالمك، فإنها علامة إلى الذهاب حيثما جئت، ولكن لم يُضِئ

الكتاب أبدًا.

تعجب يونس من كلامه، وقال: وما معنى هذا؟

نفي برأسه أبيل ليقول: لم أفهم هذا، ولكن ربما لم يشا الكتاب رجوعك مرة أخرى.

تضايق وجهه، وقال بصوت عال: كيف هذا؟

قال أبيل: أفهم هذا الكتاب جيدًا، ربما لم يشأ رجوعك إلى عالمك، ربما يحدث شيء في المستقبل، فهو يتنبأ بكل شيء في المستقبل القريب.

انصرف من أمامه مندهشًا مما قاله كبير الخدم، دخل إلى غرفته محدثًا لنفسه، بعد أن جلس على كرسيه، هل حقًا يريد مغادرة هذا العالم، أم يريد البقاء من أجل شمس وعُبيدة وكل من أحبهم هنا؟

في الليلة ذاتها كان توفان يجلس في غرفته، بعد أن وعد القاسم وأسنا بسرقة السيف في ثلاثة أيام، ولم ينفذ وعده، كان خائفًا من هذا المخلوق العجيب الذي يرى كل شيء بطائره المخيف، ثم انقض عليه الصقر فجأة من النافذة، ينظر إليه كأن عين أسنا هي التي تنظر إليه، كان حاملًا رسالة في فمه مرة أخرى، وأخذ يقرأها:

مضت الأيام المتفق عليها؟

دخل القلق قلبه، ليكتب رسالة أخرى له:

أعطني ثلاثة أيام أخرى، بعدها افعل ما تشاء، ودسها في فم الصقر، فطار

بها بعيدًا.

ثم جلس ويفكر كيف يسرق السيف من هذا الفتى اللعين، وماذا يفعل بعد سرقته.

بعد يوم من مراقبه توفان ليونس، أدرك توفان أنه في الصباح يحمل سيفه، ويجتمع بكثير من الناس في ساحة القصر، أما في الليل رآه عندما يذهب من البوابة الخلفية من القصر بملابس غريب لا تدل على إنه ملك، تعجب توفان من هذا، ولما يفعل هذا الفتى في الليل، بعد أن لاحظ غيابه لعدد من الساعات ويرجع مرة أخرى دون السيف، انتظر اليوم الثاني، وفعل يونس كما يفعل في الصباح الباكر، وفي الليل يذهب يونس بملابسه القديمة مرة أخرى، فجاءت اللحظة المناسبة إلى توفان، وذهب إلى غرفته بخطوات بطيئة منتبهًا لكل أطراف القصر، حتى لا يراه أحد من الخدم، وفتحها ببطء ثم دخلها، وبحث في أركان الغرفة عن السيف، وابتسم عندما رآه معلقًا على الحائط، تقدم إليه ونظر إليه مستغربا، وتمعن في كل تفاصيله ونقوشه، ثم أخذه بيده، وأدرك وزنه الثقيل، ثم خرج مسرعًا من الغرفة متجهًا إلى بوابة القصر، وركب العربة التي كان قد جهزها للهروب، وألقى بالسيف داخلها، وشد لجام الحصان بقوة وذهب مسرعًا خارج المدينة إلى الصحراء التي يضل طريقها، ويشاهده صقر (أسنا) من الأعلى، وهو يهرب بالسيف قال (أسنا) داخل كوخه وبجانبه القاسم:

ها قد جاء دَورك يا صديقي.

المعركة الأولى

لم يدرك بعد رجوعه إلى القصر بعد مقابله شمس وعُبيدة أن توفان أخذ السيف وهرب بعيدا في الصحراء، كان منهكًا، فنام غير مدرك ما حدث، وعندما استيقظ صباحًا بعد نوم عميق، على صوت أبيل الذي أخبره أن عُبيدة والقائد ينتظرانه، ليكملوا ما بدأوا، فأفاق من شروده ولبس ملابسه، واتجه نحو السيف المعلق على الحائط، ونظر إليه بتعجب وأخذه، وثبته في جانبه، ولم يلاحظ تغيُّره من قِبل توفان، فقد صنع توفان سيفا شبيها لنفس السيف الذي يحمله، لكي لا يدرك يونس اختفاء سيفه، ليكون له فرصة أكبر في الهروب خارج المدينة، وبعد مرور ساعات مع عُبيدة والقائد وأبيل، من تعليم بعض الناس الأمور الدينية والصلوات الخمسة، بدل ملابسه الملكية بملابسه القديمة، الذي جاء بها في أول مرة لهذه المدينة، وجاء في خاطره وعُبيدة ينتظره أسفل ساحة القصر، أنه جاء موعد الاعتراف بكل شيء إلى شمس وبحبه لها، فهي لم تعرف أنه الملك حتى الآن، وكم يعشقها منذ أول لقاء بينهم، ونزل من غرفته إلى عُبيدة الذي بات مستغربًا من أمره، وأخبره بما يريد أن يفعل مع شمس، قلق وجهه عُبيدة هذه المرة من الطريقة التي نزل بها، التي بات وجهه معروفًا أكثر للناس، لم يقل أي شيء له، وخرج من القصر معًا إليها.

في ذات الوقت في صحراء القرش، كان يجتمع القاسم مع (أسنا) بعد أن شاهد غير مصدق الكم الهائل من هؤلاء البشر، الذين سخرهم له (أسنا)،

فقد لاحظ حقا قدرته وقوته، كان يقف أمامهم أعلى الصخرة، يمسك بسيف أعطاه له (أسنا)، كان جميعهم متشابهين، يرتدون سترات قماشية لإخفاء عوراتهم، يمسكون بسيوفهم باليد اليسري، كان أجسامهم شديدة السواد، لا يرتدون غطاءً للصدر، أمطرت السماء عليهم وكانوا يقفون بثبات، كل منهم على رأسه قناع مخيف على شكل ثور، كان القاسم يقف أمامه مذهولًا مما يراه، ظل ينظر إلى كل فرد منهم في تعجب، وعندما جاء (أسنا) من خلفه، وأخبره أن جيشه مستعد لهذه اللحظة، ليدخل هذه المدينة ويقضي على هذا الفتى ويجلس على عرشه، ثم أخبره أيضًا عن اتفاقهم على أن يكون (أسنا) حاكما معه، وإذا لم يوفِ بوعده، سيؤدي طريقه إلى الهلاك، ظل القاسم ساكنًا في مكانه على قمة الصخرة، وبعد انتهاء (أسنا) من حديثه، ابتسم وجه وقلبه فرحًا، وخطر في باله أنه قد جاء موعد رجوعي، وموعد قتل الفتى، جاء موعد أخذ حق والدي وأمي الذين ماتا جوعًا وفقرًا، جاء موعد النصر، جاء موعد رجوع ملكها الحقيقي، لكن لم يفهم حقًا هل هؤلاء من البشر أم من الجن، ولم يجبه (أسنا) إطلاقًا عن تساؤله، لذلك لم يهتم، يريد فقط دخول المدينة، ليطيح بأهلها إلى الهلاك، ويقتل من يقتل من الناس، ويرمي البقيه في الصحراء، ثم قام برفع سيفه بيده، محدثًا هؤلاء ليقول بصوت عالٍ:

قد جاء موعد الدخول للمدينة الآن، سنذهب ونطيح بكل من فيها بسيوفنا، أما جيش هذه المدينة سينضم منهم لنا عدد كثير إلا بعض الجنود الذين يتبعون قائد عنيد سيقتل هذه الليلة.

ثم نزل بين الجنود بسيفه، يمضي بينهم ووقف في الأمام، وانطلق القاسم

نحو المدينة وخلفه آلاف الجنود المجهولة من طريق مختصر في الصحراء وصفه له (أسنا)، وذهبوا مسرعين، بعد أن مضى وقت على يونس وعُبيدة من سيرهم في نهار وسط المدينة، أخبره عن حماسه لأنه يريد الاعتراف بحبه إلى شمس، وأنه لم يعشق سواها في عمره، ثم أخبره عُبيدة بأنه أيضًا متحمس لهذا اللقاء ولم يعلم رد فعل شمس، ثم وقف يونس فجأة، وتساءل هل من الممكن أن تغضب شمس من هذا، أخبره بأنه لا يعرف حقًا، ولكن متاكد من أنها تحبه أيضًا مثلما يحبها، وقف يفكر للحظات في قراره وظهر عليه التردد والقلق، وأخبره عُبيدة بأن يفعل ما يريد قلبه فقط، استكمل السير هو وعُبيدة في اتجاه أرض شمس، وبعد وقت مضي عليهما من السير، وقف يونس وبجواره عُبيدة ونظروا إلى الأرض التي كانت توجد بها شمس، ثم أتت يمنى بعد لحظات، بعد أن رأت عُبيدة، وعلى وجهها ابتسامتها الجميلة، لتسأله عن هذا الفتى، أخبرها بأنه يونس صديقه، تذكرت فور سماع اسمه، بأنه هو التي تحبه شمس، دار بينهم حوار قصير، ثم سألها عن شمس، أخبرته أنها ستأتي في الحال، ظل منتظرًا في لهفة عليها، وعندما جاءت بعد دقائق قليلة، أخذ عُبيدة يمنى وجلسوا بمفردهما، لتبدأ شمس في الحديث وتقول:

كيف أنت أيها الفارس العظيم؟

ابتسم لها وقال: بخير أيتها الأميرة الجميلة.

سكتت خجلًا منه مثلما اعتادت، فقال:

أريد أن أخبرك بشيء هاماً.

أنصتت إليه بكل اهتمام وقالت: قل؟

قال يونس: أنا أحبك كثيرًا يا شمس، لم ينبض قلبي إلى فتاة سواك.

لمعت عيناها، وكاد قلبها ينخلع من شريانه، وابتسمت ابتسامة شوق لهذه الكلمة التي لم تذق لذتها إلا أمامه، وقالت وهي تنظر إلى عينيه:

انا أيضًا أحبك كثيرًا، أحبك وأشتاق إليك في كل لحظة، لم أشعر حقًا بهذا إلا معك.

ابتسم لها يونس، وقبل أن يخبرها بحبه لها منذ أول لقاء بينهما، في ساحة القصر، وأنه الملك الذي دافع عنها واسترد أرضها، وقلبه الذي نبض في هذا الوقت، زلزلت الأرض زلزالها، وعلت أصوات الصريخ في كل مكان، ونظر إليه عُبيدة مندهشًا مما يحدث، وقد أبعد شمس لتذهب إلى بيتها مسرعة هي وصديقتها، وأتى عُبيدة بخطواته السريعة، ليفهم ما يحدث، وفزع أهل المدينة المفاجئ، وصدم يونس عندما رأى عددا من الرجال على رأسهم أقنعة مخيفة، يقتلون عددا من النساء والأطفال أمام عينيه، لم ينتظر لحظة واحدة، ومد يده بجانب خصره ليأخذ السيف، ثم أدرك مسرعًا بانه لم يأتِ بسيف، ولعن هذه اللحظة، وجرى مسرعًا تجاه فتاة يقترب منها رجل آخر، كاد أن يقتلها، وعندما رفع سيفه ليقتلها هجم عليه وأوقعه أرضا، وأنقذ الفتاة، ثم التفت إلى الرجل الملقى على الأرض بعد أن وقف أمامه بسيفه، واقترب من يونس وطعنه في ذراعه، ليشاهد هذا الرجل الدماء الحمراء ثم لمعت عيناه من خلف قناعه، واقترب أكثر منه، فانقض عليه عُبيدة من الخلف بسيفه الذي هرول مسرعًا إلى البيت ليأخذه، وطعن هذا الرجل في رقبته من الخلف، واقترب من يونس ليشاهد جرحه، وقد أخبره بأنه جرح بسيط، لم

يهتم يونس بما حل به، وأخبر عُبيدة إنه يجب اللجوء إلى القصر مسرعًا لأخذ سيفه، اتجها بسرعة وكان ممسكًا بذراعه التي تسيل منها الدماء، ينظر حوله في ذهول، كان منظر الدماء حوله في كل مكان، أطفال قد ماتوا بطعنات بسيوف هذه الجنود، ونساء مجروحات في مناطق مختلفة في أجسادهن، منهم من ماتت ومنهن من قد يموت بعد لحظات، ورجال كبار السن لم يتحملوا فماتوا في الحال، وأطفال تجري هنا وهناك، دمعت عينه وهو يجرى مسرعًا إلى قصره، كان المشهد أكثر مما يتحمله قلب، موتى ودماء متناثرة في كل مكان، صوت الصريخ في أذنه وصوت الأطفال يعلو أكثر، كانوا أكثر قسوة ممن كان قبلهم.

***

كان ذلك أفعال القدماء، كل شيء يؤخذ بالقوة والقتل، لا توجد إنسانية بداخلهم، فقد مضى عصرهم منذ زمن، والآن أتى عصر التطور وتقدم الدول الديمقراطية، التي أيضًا تنتمي إلى هذه الوحشية، ربما تكون في دولتك، أو في دولة أخرى، أو تكون في دولة قريبة عن الأعين، يراها كل العالم وهي تسقط وتسقط، وينقص منها آلاف من البشر يومًا بعد يوم.

***

كلما نظر إلى فرد، بكى أكثر وأكثر، يحاول الوصول إلى قصره بأقصى سرعته هو وعُبيدة ليأخذ سيفه، ثم آتى فرد من هذه الجنود خلف عُبيدة دون أن يلاحظه، وطعنه بسيفه في ساقه ليقع أرضا هو ويونس، ثم فقدا الوعي في آن واحد، ثم تجمع من حولهم اثنان من الجنود، وحمل كل منهم واحدًا يرميه

في عربة مع آخرين، ثم ذهبت العربة بعيدًا خارج المدينة.

كان القاسم أول ما فعله هو الدخول إلى القصر مع بضعة جنود، وفشل أبيل عندما حاول الوقوف أمامه في ساحة القصر، وضربه القاسم بسيفه فور اللقاء به، وسالت الدماء من كتفيه، ثم قال أبيل وهو ملقى على الأرض، بعد أن ذهب القاسم من أمامه يجلس على كرسي الملك (العرش):

هناك ملك آخر، ليس بوسعك أن تراه، فإنه في كل مكان، يرى ما لا تراه، وسينال منك في يومًا ما، فلا تستمتع كثيرًا بحياتك، وأنتظر كل حق مظلوم ظلمته وكل بريء قتلته.

نظر له القاسم بغضب شديد، وأمر الجنود بسجنه فورًا، دون شراب حتى الموت.

في وسط الدماء والصريخ العالي بين أهالى المدينة بما حل بهم، كان القائد أبو عُبيدة ومعه بضعة جنود يحاول قتل المزيد منهم، فيزدادون أكثر وأكثر، وقد قتل من جنوده الكثير، وتبقي فقط عشرة منهم، ليحيط عدد من جنود القاسم حول أبو عُبيدة ومن ما تبقى معه، وشكلوا دائرة عليه، ونظر من حوله وأدرك إنه محاط من كل مكان، ثم تكاثرت الجنود عليه وبدأوا في الاقتراب منه ببطء، وأمسكوا به ثم أخذواه إلى القصر هو والجنود الثلاثة الآخرين، وقد توقفت المعركة، ومات من مات وتبقى من تبقى، وشهدت المدينة بأنه يوم الجحيم والهلاك، وتعجب القائد من عدم ظهور يونس بسيفه، وأيضًا هذا الجيش اللعين الذي خانه في لحظة واحدة، كان يمشي وهو مقيد الأيدي بين الجنود، بدأت عيناه في إسقاط دموعها حزنًا وبكى على الأطفال

والنساء والشباب الذين ماتوا أمام عينيه، وصرخ صرخة إلى أعلى السماء، قد سمعها القاسم من القصر قد زلزلت أركانه، حتى فهم أن القائد العنيد قد أمسك به، وانتظروا هو جالس على عرشه ويفكر في عقابه الذي سيناله منه.

***

مضى اليوم الأول على هذه المذبحة التي لم يذق أهلها النوم، وظل يونس مختفيًا هو وعُبيدة، كان أهل المدينة في تساؤلات بينهم عن الملك، وأين هو، يتعجبون نن اختفاءه حتى أيقنوا إنه خائن، وباع هذه المدينة مقابل الذهب، ولكن لم تكن تصدق شمس ذلك، كان قلبها مدرك إنه لم يفعل ذلك، ولكن كان شعورها نحو موته هو وعُبيدة يحيط بها، مثل موت أمها في الليلة السابقة على يد الجنود التي اقتحموا منزلها في أثناء مقابلتها مع يونس، كانت تنهار من البكاء على والدتها التي شاهدت جرحها بأحد سيوف الجنود، وصديقتها يمنى التي أدركت حقًا كم تحب عُبيدة منذ زمن، ثم جمع جنود القاسم في النهار في وسط المدينة، كل أهالى المدينة، واقتحموا كل منزل في المدينة وأخذوا أهلها إجبارًا بعنف وقسوة، وقد كانت شمس من بينهم ولم تنطق بكلمة منذ موت والدتها وحبيبها، وكانت ساكنة لم تتحدث مع أحد، حتى أصدقائها، كانت ما قد مرت به أشد قسوة وعذابا على قلبها، من موت أبيها ثم والدتها حتى أيقنت موت يونس و عُبيدة، وبعد تجمع أهل المدينة، وكانت الجنود يحيطون بهم من كل مكان، أمام قصر القاسم الذي ظهر بملابسه الملكية ومعه اثنان من المساعدين له بجانبه، وعدد من الجنود خلفه، وقال:

أنا الآن الملك، وأنتم شعبي، وقد خانكم الفتى الأحمق وذهب خارج

المدينة.

كان الأهالى بين الحيرة والتعجب بما قاله القاسم، كانوا يتلفتون حولهم في غرابة، ولكن لم تصدق شمس كلامه، وكانت تعلم بأنه كاذب، ثم أكمل القاسم:

نعم هذا ما حدث، وسنعيش معًا مثلما كنا نعيش في الماضي.

ثم دخل القاسم قصره، وهو يفكر أين ذهب هذا الفتى، وأمر الجنود الذي خانوا يونس، بالذهاب إلى كل مكان في المدينة ليأتوا به ويقتلوه.

***

والآن يا أخي، ما رأيك، أدرك ما تدركه الآن، وكيف تفكر، أشعر بحركات عينك، نعم، أعلم حقًا ماذا في قلبك، ولكن إنتظر، ليس كل نهاية كما تظن، ربما تكون سعيدة، وهذا ما يحلو لخيالك، وربما تكون سيئة ومؤسفة وهذا ما يحلو للواقع.

***

كان اليوم الأول بعد احتلال القاسم للمدينة مؤسفًا للجميع، فقد جمع الجنود كل المحاصيل الزراعية من الأراضي لبيعها لمدينة أخرى، مقابل كمية من الذهب، وكل من كان معارضا للجنود من الناس كان مصيره السجن أو الهلاك، مثل مصير شمس التي وقف ضد الجنود معارضة لهم في غضب شديد، فحرقوا أرضها أمام عينها، ثم أخذوها إلى القاسم الذي ابتسم فور لقائها به، وهى مقيدة من قبل الجنود، وبدأ في إلقاء نظراته عليها في تمعن بين

جسدها، ثم تحسس وجهها وقال: لم أرى فتاة بغاية الجمال مثلك.

نظرت إليه بغضب شديد وقالت: لا تلمسني أيها الجبان.

ثم قال: ما رأيك أن تكونى فتاتي، وتعيشي هنا في القصر معي، أنت الآن لا تملكين شيئا؟

قالت بجديه شديدة: أفضل الموت على ذلك.

ضحك القاسم وقال: حسنًا، ربما يكون السجن لكِ أفضل من ذلك، حتى تأتي إلي.

قالت شمس بعد أن أمر الجندي الذي خلفها أن يأخذها ويلقي بها في السجن:

لن آتي أبدًا.

ثم أتى أحد الجنود أمام القاسم وهو جالس على عرشه يقول:

تم الأمر يا مولاي، قد أخذنا البشر إلى الصحراء (عفرين) بعد موتهم، وتركناهم هناك، وقد فاحت رائحة الموت منهم.

***

صحراء عفرين

في الليل، كانت الرياح شديدة القسوة على أجسادهم، والظُلمة تغمر الصحراء، كانت صوت الهواء يعلو شيئًا فشيئا، ثم يهدأ للحظات ويعلو فجأة مرةً واحدة، كان منهم من قد مات وذهبت روحه للسماء، ومنهم من كان مجروحًا ولم يستيقظ بعد، ليبدأ جسده في الارتعاش من شدة برودة الهواء، كان رجل كبير السن، يدعى الشيخ بلال، له لحية بيضاء طويلة، يبلغ من العمر واحد وستين عامًا، كان قد فقد بصره وهو شاب ولم يعد يرى، وكأن الله أنعم عليه بفقدان بصره، لكى لا يرى الكم الكبير من أهل المدينة اللذين ماتوا، وظلم السنوات الماضية، ولكن قلبه كان يرى كل شيء، وكلما زادت الرياح في برودتها، زاد جسده في الارتعاش، بدأ في إدراك إنه لم يكن الوحيد في هذه الحالة، تحسس يده بجانبه يمينًا ويسارًا، وفهم أن هناك الكثير من الناس جانبه، ثم اعتدل في جلسته وأسند ظهره على أحد الملقون أرضا بجانبه، وتحسس جرح ساقه الذي توقف نزيفه، ليأخذ قماشة كانت ملفوفة على رأسه، يربط بها جرحه دون أن يتحرك من مكانه، وقد دخلت في أنفه رائحة الموت، ثم تأثر بهم ودمعت عيناه من البكاء عليهم، ثم بدأ يسمع أصوات أرجل تأتي من خلفه، حتى اقتربوا إليه بخيولهم الثلاثة، كانوا جنود أقوياء البنية، بسيوفهم ودروعهم، وقد أحاطوا به، وكل منهم يمسك مصباحه، ثم نارت هذه الدائرة التي توجد بها الكثير من الموتي، ازداد قلبه قلقًا وخوف، وأنه لم ير أحد منهم، وفي نفس اللحظة تحرك اثنان من الملقون

على الأرض بجانبه وأدرك إنهم على قيد الحياة مثله، نظر أحد الجنود بغرابة بعد نزوله من حصانه على الناس الملقون أرضا وهم أموات، ثم ألقى سؤاله على الشيخ بلال في غضب وقال: من أنت، ومن الذي جاء بكل هؤلاء إلى هنا؟

أدرك الشيخ بلال إنه في مكان خارج المدينة وقال في حزن وهو ينظر إلى الصوت الموجه له:

جنود القاسم يا ولدي أطاحوا بالمدينة وقتلوا الكثير منا.

نظر الجندي إلى الجنود الذين بجانبه كأنه لم يعرف شيئًا عن القاسم أو حتى عن هذه المدينة، ثم أمر أحد الجنود الآخرين، بأن يأخذوا، حتى يقرروا ما يفعلون بهم، ليأتي الجنديان إليه، ويرفعا على حصانهم، ليقول الشيخ بلال:

إلى أين يا ولدي؟

قال الجندي بعصبية: أنا لست ولدك، وستلقى في سجن مدينة عفرين، حتى نقرر ما نفعله بك.

وقبل ذهابهم أدرك الشيخ بلال أنه يوجد أحد مثله حي، وقال للجنود قبل ذهابهم: إنتظروا، هناك اثنان على قيد الحياة مثلي.

نزل الجندي إليهما، وفحص كلًا منهما، وأدرك حقًا انهم أحياء، ثم أمر الجنود بأخذهم معًا إلى سجن المدينة التي لم يعرفوا عنها شيئًا، أخذ الجنود كلًا من يونس وعُبيدة والشيخ بلال على أحصنتهم ليلًا في الصحراء، وذهبوا إلى سجن مدينة عفرين، وتبقى ما تبقى من الأموات.

مدينة الباب

في اليوم التالي، لم يكتف القاسم بأخذ الأراضي الزراعية من الناس، أو حرقها لكل من يعارض ذلك، أو موته إذا وقف أمام الجنود، لذلك جمع الأطفال وأهاليهم من النساء أو الرجال لعملهم في هذه الأراضي، مقابل فقط العيش بسلام، لم يكن هناك من يعارضه في ذلك، لإدراكهم بأن ذلك يؤدي إلى موتهم وهلاكهم، فعاد أهالي المدينة يخافون من الجنود أكثر من ذي قبل، فازدادت الجرائم بين الجنود والأهالي مجددًا، فعاد الإحباط واليأس من جديد، وكأن الشمس لم تأت بنورها في هذه المدينة، وظل كل من أبيل والقائد أبو عُبيدة في سجن تحت الأرض، بوابته الرئيسة بجانب القصر، وكان مشدد عليه الحراسة، وكان كل منهما يسكن زنزانته بمفرده بجانب بعضهما، ورغم إصابة أبيل وعدم إمداده بالماء أو الطعام، الذي منعه عنه القاسم، كان يحاول دائما السجود إلى الله، والدعاء دائما بنصر أهل المدينة، كان الوحيد المتيقن من عدم موت يونس، وأنه في النهاية سيأتي بالنصر قريبًا، لم ييأس قلبه وإيمانه بالله بعودة في رحاب المدينة، وفي الزنزانة الأخرى كان القائد، وكان في غضب شديد من الجنود الذين خانوه في المعركة، ظل يمشي يمينًا ويسارًا من شدة غضبه، حتى أمسك بقضبان السجن، وهو عاري الصدر، وبرزت عروقه من جسده وقال بصوت كبير:

لن أموت بهذه السهولة أيها القاسم، إن لم أحاسبك أنا، سيحاسبك الله، لا مفر من ذلك، فأنتظر موتك.

كانت شمس في الدور الأعلى من السجن، عندما سمعت صوت هذا القائد الكبير، كانت ساكنة بمفردها لم تتحرك أو تهمس حتى لنفسها بشيء، كانت مصدومة مما حدث، مات والداها وذهبت أرضها واختفى حبيبها في لحظة، لم يبقَ سواها، والآن هي أيضًا سيأتي دورها في زنزانتها بمفردها دون طعام أو ماء، سندت ظهرها على الحائط، ويتسلسل اليأس إليها، وبدأت في استقبال موتها بكل ترحيب.

***

حين تدرك مؤخرا بأن من الصعب العيش في ظروف تمنعك من الوصول إلى أمالك لا تستسلم بهذه السهولة يا أخي، فربما يأتي القدر بالانتصار لك في وقت ما.

***

مدينة عفرين

في رحاب المدينة كانت السماء تمطر على سكانها، تزين أرضها وأشجارها الجميلة، في حب ملك مدينة عفرين، كان يحتفلون هنا وهناك، وتلعب الأطفال في الشوارع، ويتسابقون جريًا في ابتسامات متلاحقة تجعل كل من يشاهدهم يسعد من تلقاء نفسه، كانت الورود تتطاير في الهواء من قبل نسائها وشبابها، يحتفلون في فرح بظهور ملكهم من جديد بعد غيابه فجأة دون وداع لهم، حتى أقبل عليهم خارج قصره في شوق لهم، وكأن هذه اللحظة كان ينتظرها بفارغ الصبر، وعندما أتى إليهم، ازداد الصياح والاحتفالات بترحيب كبير له، حتى دخل داخل قصره وجلس على عرشه، وسأل أحد القادة عن أحوال المدينة في غيابه، فطمأنه على المدينة وأحوالها وأن كل شيء على ما يرام، ثم أخبره أخيرًا عن ثلاثة أشخاص التقى بهم في صحراء عفرين بين عدد من الأموات، وقد آتى بهم إلى هنا، وأدخلهم سجن المدينة، وقف الملك ونظر إلى القائد المتحدث وقال بجدية:

أحضرهم في الحال.

سجن مدينة عفرين

قد استيقظ يونس من غيبوبته ويليه عُبيدة، وكل منهم قد ضُمِّدَت جراحه، نظرا أين هما وما الذي حل بهما، تفاجآ أنهما في زنزانة وهناك شخص آخر نائم في غيبوبته، لم يتعجبا من ذلك، فجاء في خاطر عُبيدة أنه حتما القاسم من فعل هذا، وهو أيضًا من سجنهم هنا في المدينة، وأتى عُبيدة بجانبه يطمئن على جرحه، رفع حاجبيه عندما رأى أنه سليم، فتعجب من ذلك، ونظر كلاهما إلى الرجل المسن الذي بدأ أن يفيق من غيبوبته شيئًا فشيئا، وبدأ يأخذ أنفاسه بصعوبة، فجاء عُبيدة إلى جانبه يتحسسه، وأمسك قضبان الزنزانة بعصبية وقال: نريد الماء، نريد الماء، هناك أحد على وشك الموت.

لم يستمع إليه أحدًا، ثم أتى يونس بجانب الرجل، يحاول أن يخفف عنه ألمه مثل ما يفعله عُبيدة، ثم أتى جندي في هذه اللحظة أمام القضبان، ويمد يده بالماء الذي طلبه، نظر إليه يونس في غرابة كأنه بدأ يفكر في شيء، ثم أخذ كوب الماء من يده وشكره في الحال، وبدأ يونس في إعطاء الرجل بعض الماء بعد أن فتح عينيه، ونظر إلى عُبيدة وقال وهو يسقي الرجل: نحن لسنا في مدينة الباب إنها مدينة أخرى.

رد عُبيدة عليه في دهشة: ومن أين فهمت ذلك؟

قال يونس بجدية: إذا كان القاسم هو من سجنه، فمن الصعب أن يضمد جراحنا بكل هذه السهولة، وأيضًا أنظر إلى هذا الجندي الذي يقف أمام القضبان.

نظر عُبيدة إلى الجندي الذي كان يقف أمام الزنزانة، ويدير لهم ظهره، ولكن لم يفهم ما يقصده يونس، ليقول عُبيدة: لم أفهم شيئا.

قال له: إنه ليس طويل القامة مثل جنود مدينة الباب يا صديقي.

قالها له، وقبل أن يرد عُبيدة عليه، أفاق الرجل بعد تناوله الماء على يد يونس، تبادل الثلاثة النظرات، ثم قال له: من أنت يا شيخ، وما اسمك، وأين نحن الآن؟

بدأ الشيخ بلال في تحسس وجه المتحدث له، فهم يونس وعُبيدة إنه فاقد بصره، وقال: أنا الشيخ بلال يا بني، رجل من مدينة الباب.

لم يرد يونس، وبدأ الشيخ بلال برفع يده الأخرى بتحسس وجه عُبيدة وقال:

سبحانه الخالق، إنكما ما زلتما شبابًا.

رد عُبيدة وقال: نعم يا عمي، نحن شبان، ماذا حدث لك؟

قال الشيخ بلال بتأثر: حدث معي، مثلما حدث لكم، كثير من الموتي في صحراء عفرين، بعدما أطاحوا بنا جنود القاسم، الذي ظنوا أننا أموات.

قال بعدما نظر إلى عُبيدة: عفرين!

ثم قال الشيخ: نعم مدينة عفرين، سمعت الجنود الذين أخذونا من الصحراء يرددونها كثيرًا، فعلمت إنها مدينة أخرى.

ثم أكمل الشيخ بلال وقال: ما اسماكما؟

قال عُبيدة: اسمي عُبيدة، وهو يونس.

ثم مرت دقائق صمت عليهم، وبدأ بالتفكير فيما يفعله الآن، وفيما ظنه أهل المدينة به، وعن حال شمس والقائد وأبيل الذي فقدهم في لحظة، وهل سيساعدهم ملك هذه المدينة أم لا، حتى جاء عُبيدة بجانبه وسأله عما يفعلونه، فلم يرد يونس عليه، ثم بدأ الشيخ بلال في التحدث عن المدينة في الماضي، وإنها لم يأتِ إليها حاكم أو ملك منصف لهم، وحتى الملك الشاب الذي جاء مؤخرًا الذي بدأت المدينة في الازدهار على يده هرب خوفًا من القاسم، ومثلما أخبرنا الجنود سابقًا إنه يمتلك سيفًا قويًا، فلماذا هرب في هذه المعركة، نظر عُبيدة ويونس له، وفهم يونس بأن أهل المدينة ظنوا حقًا إنه هرب خوفًا من القاسم، ثم جاء بجانب الشيخ بلال وهو ساند على ركبته وقال:

لا لم يهرب ياشيخ.

إعتدل الشيخ في جلسته، وقال بجدية:

كيف يا ولدي لم يهرب، وأين هو الآن، وأين سيفه الذي يحمي به أهل المدينة؟

نظر إلى عُبيدة، مترددا فيما يقوله له، ثم قال أخيرًا:

أين هو يا شيخ؟ هو أمامك الآن، وأين سيفه، سيفه من الممكن أن يكون قد اختفي على يد أحدهم، حتى في وقت المعركة كان وسط أهل المدينة يدافع عنها، وقد أصيب في ذراعيه وفقد وعيه، وعندما فاق من غيبوبته أدرك إنه في

مدينة أخرى لم يعرف عنها شيئًا، ومقيد في زنزانة.

اهتزت يد الشيخ بلال، تحسسًا على وجه يونس، عندما سمع كلماته، مصدوما بما قاله وبدأ في البكاء، وقال:

أنت ملك مدينة الباب حقًا يا ولدي؟

رد ورأسه منحنية: نعم يا شيخ.

قال الشيخ بلال: لا أصدق أنك بين يدي الآن، ارفع رأسك يا بني لا تحنها أرضا أبدًا.

ثم قال بحزن: ظن أهل المدينة أنني خائن لهم.

قال الشيخ بلال: والله إن ظن العالم أنك خائن ولم تخن، وأنك جبان ولم تكن، وأنك ظالم ولم تفعل، فكفى أن يعلم الله ما بداخلك، فاعلم حقًا أنك المنتصر في النهاية.

وفي نفس اللحظة الذي سمع كلمات الشيخ بلال الآخيرة، إقترب جندي قوي البنية من قضبان الزنزانة، وقد أخرج عدة مفاتيح وفتح لهم، ثم قال بعد أن دخل لهم: استعدوا الآن، سيلتقي بكم ملك مدينة عفرين في الحال، هيا.

أسند يونس وعُبيدة الشيخ بلال ليساعدوه على الوقوف، تقدم الثلاثة خارج الزنزانة وأمامهم الجندي وخلفهم جندي آخر، يمشون ببطئ بين مساجين المدينة، الذين على وجوههم علامات الشر والعنف، في ممر طويل،

ليقلي أحد المساجين بكلمة موجهة إلى يونس:

حتما ستنالون عقابكم الآن أيها الفتى.

لم يرد عليه أحد، واستكملوا السير في ممر السجن الطويل، حتى نهايته، ورأوا سلمًا إلى الأعلى، وقد بدأوا صعوده، حتى انتهوا منه، نظر يونس وعُبيدة باندهاش شديد إلى قصر المدينة هو أضخم وأكبر قصر شاهد الاثنان، كان عالي الأسوار، لونه شديد البياض، في كل ركن له كان مزين بالورود الحمراء والخضراء، وفي وسطه تمثال كبير لرجل يدل على أنه ملك هذه المدينة يمسك بسيفه إلى الأعلى، وعلى رأسه تاج ذهبي، كان مشهد القصر لهما يكفي لدخول الطمأنينة بداخلهم، فاستراحت قلوبهم للتو، وعندما بدأوا يتقدمون أمام القصر، نظر يونس خلفه إلى الجندي الذي يقفل بوابة السجن التي خرجوا منها، ففهم أن السجن تحت الأرض وبجانب قصر الملك، فتح أمامهم بوابة القصر الكبيرة، ودخل كل من يونس وعُبيدة ممسكين الشيخ بلال بأيديهما، وصعدوا بعض درجات السلم المؤدية لساحة القصر الداخلية، وفتحت بوابتها من قبل أحد الخدم، رفع رأسه ينظر إلى الملك الجالس على عرشه ممسكًا بعصاه الكبيرة بيده التي ظهرت غير مالوفة ليونس أو لعُبيدة، ويده الآخرى مسندة على عرشه، في مشهد عظيم، فشعر بأن هذه المرة الأولى في حياته يرى ملكا حقيقيًا منذ أن أتى هذا العالم، تقدموا إليه، حتى وقفوا على بعد أمتار قليلة منه، وعندما اقترب منه ودقق في ملامحه، تعجب بأنه ما يزال شابًا مثله تمامًا، أبيض الوجه، وله لحيه سوداء خفيفه، وعيناه كانت ملونه باللون الأزرق، يجلس على عرشه كأنه ملك من مئات السنين، تقدم الجندي

الذي كان في المقدمة بعد أن أدى تحية الملك وقال:

مولاي الملك، هؤلاء الأشخاص الذين كانوا في صحراء عفرين وبجانبهم عدد من الأموات.

ثم وقف من على عرشه، ونزل درجتين من سلمه، ووقف أمامهم مباشرةً، ثم أشار بيده إلى الجندي حتى ينصرف، فانصرف الجندي في الحال، ولم يتبق غيرهم في ساحة القصر، أزاح يونس يد الشيخ بلال وأسندها إلى عُبيدة، حتى وقف أمامه ثابتًا كما يقف، وقال الملك ليونس:

ما الذي أتى بكم إلى الصحراء، ومن الذي فعل بكم هذا؟

قال يونس: نحن من مدينة الباب، وقد دخل القاسم إلى مدينة وذبح أهلها بوحشية.

قال الملك: ربما سمعت عنها قليلًا فقط، ولكن أعرف أن هناك عدة مدن أخرى غير مدينة عفرين، ولكن لم يشأ القدر التعرف عليهما.

قال بتعجب: ماذا! إنها مدينة لا يعرف جيشها سوى الظلم والنهب.

قال الملك: أعلم أن هناك جيشا هكذا حقًا، ولكن أنا هنا أهتم بأمور مملكتي فقط.

نظر إلى عُبيدة في إعجاب شديد، ولم يعرف ماذا يقول، وأكمل الملك: ما اسمك؟

قال: يونس.

قال الملك: نعم يونس، إسمك جميلًا، أتذكر قصه جميلة لهذا الإسم.

غضب وقال: هناك مدينة على وشك الموت، أريدك أن تساعدني في هذا.

قال الملك وقد تغير وجه مع طريقه تحدث يونس: ومن أنت حتى تتحدث هكذا.

قال: أنا ملك مدينة الباب.

فتح عين الملك في غرابة وسأله في الحال: كيف أنت الملك أيها الشاب؟

قال بعصبية، استدعت جنود الملك في التقرب خلف يونس وعُبيدة والشيخ بلال: نعم أنا الملك أيها الملك، قد أتيت من عالمي ولم أفهم حتى الآن، كيف صرت ملكًا، بعد أن وثق في أهالي المدينة، وبدأت في تغيرهم إلى الأفضل، جاء القاسم بجيش غريب لم يعرف طريق الرحمة، وقتل الناس والشيوخ والأطفال، حتى السيف الذي أدافع به عن المدينة في أغلب الظن قد اختفى من قبل أحد الخائنين، أريدك أن تساعدني حقًا، هناك المزيد من الموتى في كل يوم.

قد أحاط الجنود بيونس وعُبيدة والشيخ بلال، بسرعة شديدة، حتى رفع الملك يده ليوقف جنوده، حتى اقترب من يونس أكثر بعينيه الواسعتين في دهشة وقال: أي عالم تتحدث عنه؟

قال بعد أن هدأ من غضبه لما قاله وأيضًا أدهش الشيخ بلال:

هذا ليس عالمي، أنا من بلد أخرى.

اندهش الملك أكثر، وقد لاحظ يونس تعجبه كثيرًا عن عالمه الآخر، وقال الملك:

من أين أنت يا يونس؟

قال: أنا أنتمي إلى مدينة في الأرياف، وبلدي تسمى مصر.

***

قصر مدينة الباب

قد أسرع عدد من الجنود إلى قصر القاسم، وأخبروه في ساحة قصره بأن الكثير من الجنود قد اختفوا فجأة ولا يعلمون أين هم، وأيضًا الجنود الذين يرتدون أقنعة قد اختفوا من المدينة، وقل عدد جيشه، غضب القاسم وتعجب مما قاله الجنود، غير مصدق كيف هذا حدث، وصرخ أمامهم في غضب شديد، وأمرهم بالانصراف حتى يفهموا الأمر جيدًا ويخبروه، وقبل انصراف آخر جندي أمامه، تقدم إليه الجندي وقال: مولاي وهناك خبر آخر.

تقدم القاسم إليه بوجه غاضب وقال: قل أيها الجندي.

قال الجندي مرتبكًا: لم نعرف طريق الفتى الذي كان قبلك هنا، وقد دخلنا كل بيوت المدينة ولم نره.

قال القاسم بعد أن هدأ من غضبه: سيموت كل من عاونه غدًا أمام المدينة، حتى يظهر لنا من جديد.

وانصرف الجندي في الحال، حتى ظل القاسم في القصر بمفرده، يفكر فيما يفعله، حتى صعد إلى غرفته وهو يفكر بقتل الفتاة والقائد العنيد ورئيس الخدم غدًا، واقترب من غرفته يفتحها، ثم دق قلبه فجأة من فزعته عندما رآه جالسًا على كرسيه منتظره وعلى كتفه صقره بجناحه الكبير، ونظر إليه برأسه وبرأس الصقر في آن واحد، وقال: كيف حالك أيها الملك؟

قال القاسم باندهاش: (أسنا)!.

ثم قال القاسم بعد أن هدأ من فزعته: أنت من أخفيت الجنود من المدينة؟

قال (أسنا) بعد أن وقف أمامه: نعم أيها الأحمق.

غضب القاسم غضبًا شديدًا بعد أن وصفه بالأحمق وقال: لماذا فعلت ذلك؟

قال بكل هدوء: لأنك تدمر المدينة، ولم تبق ملكًا فيها كثيرًا.

جن جنون القاسم بعد أن سمع كلماته، وصرخ في وجه وقال: من أين علمت هذا؟

طار الصقر أمام القاسم، يصيح بصوته في وجهه، وبدأ القاسم يهدئ من غضبه، ثم قال (أسنا): هناك كتاب في القصر، يتحكم بالمدينة، ويتحكم في كل ملك يحكم هذه المدينة.

قال القاسم بغرابة: كيف هذا، لم أر هنا كتابًا السنوات الماضية.

قال (أسنا): علمت هذا حديثًا، وعلمت أيضًا أنه كتاب يصعب التغلب عليه، ولم تفك تعويذته بسهولة.

قال القاسم بعد أن تقدم أمامه: وأنت لم تعرف كيف تفك هذه التعويذة؟

صمت (أسنا) للحظات يفكر، ثم قال بعد أن ظهر على وجهه اليأس: هذا الكتاب مسالم بما فيه، ولم أصل إلى طريقه لفك تعويذته، وهذا ما كان يمنعني من دخولي إلى هذه المدينة كأنه حامي المدينة، ولكن عندما دخلت أنت، دخلت أنا أيضًا، وهذا يعني أنه يتبع الفتى الذي جاء إلى هنا وصار

ملكًا.

ظهر على وجه القاسم عدم فهم (أسنا)، ولكن تعجب من كلامه عن الكتاب وصلته بملكه، فقال: كيف هذا، قد اختفى هذا الفتى ولم يعد موجودًا، وفي الأغلب أنه مات منذ زمن.

صمت (أسنا) وتقدم أمام النافذة، بعد أن ذهب صقره بجناحه عبر السماء، وقف للحظات مغمض العينين، ثم قاطعه القاسم قائلا بغضب:

هذا الفتى لم يعد حيًا.

أمطرت السماء، ودق البرق والرعد في السحاب، وانقلبت الأجواء في لحظات، نظر (أسنا) إلى القاسم، بعد أن فتح عينه فجأة من روعته، وقال جملته الأخيرة قبل أن يختفي من أمام القاسم:

إن الفتى حي في مدينة عفرين، وقد يأتيك في أي لحظة فاستعد له جيدًا.

تفاجأ القاسم من جملة (أسنا) الأخيرة، حتى وقف مصدومًا في ذهول مما قاله، بعد أن اختفى من أمامه تمامًا، ثم غضب أكثر مما كان عليه، وقال بصوت عالٍ: لم يهزمني هذا الفتى.

ثم نزل مسرعًا إلى ساحة قصره، وقد جن جنونه، واستدعى ما تبقى من قادة جيشه، أتوا إليه سريعًا وأخبرهم أن هناك معركة غدًا، وسيتوجب علينا الذهاب إلى الصحراء، ليستعد كل منهم على أكمل وجه من الآن، ذهبوا مسرعين كما أمر القاسم استعدادًا للمواجهة.

***

قصر عفرين

بعد أن وقف الملك عثمان أمامه مذهولًا مما قاله، غير مصدق، أن يأتي شخص من هذا العالم كما هو جاء في الماضي، طال النظر إليه الذي بات متعجبًا من رده فعله بصمته، وتبادل نظرات الملك إليه، بعد أن أمر الملك بانصراف كل الجنود في ساحة قصره، كأنه لا يريده أحدًا سماع بما يريد قوله، إلى نظرات شوق وحنين إلى العالم الذى آتى منه يونس، كأنه قابل أخاه الذي افتقده كثيرًا في هذا العالم، قام بأخذ يونس بين صدره فجاءه، تعجب يونس وعُبيدة وظلوا مستغربين كثيرًا، تراجع فجأة إلى الخلف باندهاش، ثم قال له:

ماذا بك أيها الملك، ولماذا تتعجب هكذا، ومن أنت، ولماذا ظهر عليك الإندهاش من بلدي هكذا؟

قال الملك وهو يبتسم له: اسمي عثمان، وبلدي تسمى فلسطين.

وقف للحظات، غير مدرك ما سمعه، لم يحرك ساكنًا ، لم تغفل عينه من النظر له، لم يفهم كيف حدث هذا، ظل عبيدة ينظر إلى يونس ولم يعد يفهم شيئًا، ولكن الشيخ بلال ظل على وجه التعجب مما سمعه، ظل عُبيدة يناديه عدة مرات ولم يرد عليه ، حتى فاق من شروده فجأة، وقال: أنت من فلسطين؟

قال الملك عثمان: نعم يا أخي.

قال ومازال على وجهه الاندهاش: وكيف جئت إلى هنا؟

أخذه الملك من يده الذي ظل مندهشًا مما قاله، وصعدوا إلى غرفته، ليستكملوا حديثهم، بعد أن أمر الملك عثمان بأن يهتم بعض الجنود بعُبيدة والشيخ بلال، حتى دخل الملك إلى غرفته ويليه يونس خلفه، وأغلق الملك باب الغرفة بإحكام، ثم قال الملك عثمان: تفضل بالجلوس يا أخي.

جلس على كرسي تتوسطه منضدة عليها القليل من الأزهار، ثم أتى الملك أمامه يجلس على الكرسي المقابل له، ثم تبادلوا النظرات لبعضهم بغرابة وكل منهم يريد معرفه قصةالآخر، ثم ازداد الفضول داخل الملك عثمان أكثر، وبدأ بالسؤال وقال:

أخبرني يا يونس كيف جئت هذا العالم؟

إعتدل في جلسته أمامه، ثم بدأ في جوابه، وأخبره عن كل شيء، من لحظة وفاة عم إدريس الذي كان بمنزلة أبيه وفقده في لحظات، والعمل معه في مكتبته الكبيرة، وبإخبار عم إدريس ليونس بأن في مكتبته سرا، ولكن لم يقل له ما هو، ثم أخبره بفضوله الكبير نحو المكتبة التي كان يريد معرفة ما بداخلها، حتى وقعت المذكرات في يده، في غرفة داخل المكتبة، التي كانت توجد بها صورة شبيه له ليتعجب من ذلك، ومن رائحة الغرفة الجميلة، ثم أخبره عندما فتح المذكرات وكانت مكتوبة بخط قديم، لشخص يسمى جارنيت ويلسلي الذي حكى عن إعجابه الشديد بمصر والقرية الذي كان يسكن بها في قصره، وذكر أيضًا سر غرفة في قصره، وعن مدينة أخرى ولم يذكر شيئًا عنها، ومن الممكن أن تكون مصدر سعادة أو مصدر تعاسة، ثم أخبره أيضًا عن عم منتصر صديق عن إدريس الذي أكمل هل قصة هذه

المذكرات عندما قابله، وعن مساعدته لي في حل لغز هذه المذكرات، انتبه الملك عثمان أكثر ويقول له: أي لغز هذا؟

قال يونس: رجل من النسل، يأتي إلى مكانه، ويذهب إلى عنوانه، بإرادته.

ظل الملك يفكر قليلًا في لغزه هذا، ثم أكمل يونس ما بدأه، وفهم أن هناك قصرًا في بلده كان تابع لهذا الملك صاحب المذكرات، ولكن كان مهجورًا السنوات الماضية، حتى دخل القصر هذا، ونزل إلى الغرفة التي ذكرها الملك في مذكراته لتغلق عليه، ويحبس فيها يومًا كاملًا، حتى آتاه عم منتصر وبدأ في حل اللغز، ليفتح باب الغرفة الصلب وقد سحبه إليه، وفقد وعيه، وبعد أن أفاق تغير كل شيء، أدرك إنه في صحراء غريبة، وقد اختفت الغرفة تمامًا، ومشى كثيرا، حتى التقى بالمدينة الدائرية، وعندما دخل داخلها، نظر حوله وقد شهد ما لا يشاهده في حياته، أشخاص طوال القامة يمسكون بسيوف ودروع ونساء مثلهم، والقليل من الأشخاص الطبيعية، والكثير من الجنود يضربون شخصًا واحدٍ، وكل أنواع الظلم الذي لم يره في حياته، حتى تيقن تمامًا إنه سيموت في هذه اللحظة، ولكن عندما رأه عددًا من الجنود يقفون أمام شجره كبيرة في وسط المدينة يعبدونها، زاد فضوله أكثر مما كان من ذي قبل، اتجه إليهم ينظر ماذا يفعلون، يتفاجئ إنهم يعبدون صورته المحفورة على هذه الشجره، وعلى صوته فجاة بينهم، وعندما نظروا إليه، أخذوا يهتفون بأنه الملك، وصار ملكًا لهذه المدينة دون أن يعرف كيف.

زادت دهشة الملك عثمان أكثر، وتعجبه من قصة يونس التي حكاها، ليقول له: هل إدريس والدك؟

رد عليه قائلًا: لا، والدي وأمي لم أرهما ابدًا، ولكن أخبرني عم إدريس أنهم، توفيا في حادث منذ زمن.

قال الملك عثمان: هذا يعني أن إدريس يعرف والدك جيدًا.

صمت للحظة، ثم قال: نعم بالتأكيد.

قال الملك: كيف عثر إدريس على هذه المذكرات؟

أجاب يونس وقال: أخبرني عم منتصر أن والد عم إدريس إنه هو من عثر عليها داخل قصر الملك جارنيت، لأنه كان مناضلًا أيام الحرب ضد الإنجليز، وكان يومها قد هاجم أهالي القرية قصر الملك هذا، ومن بينهم والد عم إدريس، وقد أخذها من غرفته.

وقبل أن يرد الملك عثمان على ما قاله، تذكر يونس شيئا فقال:

ولكن، عندما صرت ملكًا ودخلت داخل غرفة الملك، كان وجدت الصورة الشبيهة لي، وعندما سألت رئيس الخدم عنها، قال لي: إنه ابن الملك جارنيت، الذي يصفه بالابن العار الذي تزوج من خادمته.

وقف الملك عثمان يفكر قليلًا أمام يونس، والتفت إليه وقال:

نعم، وقد يكون هذا والدك، والفتاة الخادمة هي أمك.

قال: كيف هذا؟

جلس الملك أمامه مجددًا، وقال:

إن لم تكن من نسل هذه العائلة، فكيف جئت إلى هنا، وهذا سر اللغز

الذي حللته، أما عن والدك أو أمك، فمن الممكن أن يكون جدك ابن الملك جارنيت، الذي تزوج من خادمته من قريتك، ومن الممكن أيضًا قد أنجب منها طفلًا، وبلا شك قد يكون هذا والدك، ولكن قد يكون بطريقة غير شرعية، وذلك وصفه بالابن العار، وهذا يعني أن الصورة التي رأيتها ليست لوالدك، وإنما لجدك.

حل الصمت عليه، وقد تجمعت كل الخيوط الناقصة أمامه، نعم هذا أقرب إلى الظن، فقال للملك:

نعم، هذا أغلب الظن، ولكن، أين أبي، أين هو؟

رد الملك عليه وقال: لا أعلم.

قد تشتت فكره مجددًا، فأخذ ينظر إلى سقف الغرفة، ليستعيد فضوله أكثر عندما تذكر بأن هذا الملك من فلسطين، فأنتبه له مجددًا، وقال:

أخبرني أيضًا، كيف جئت إلى هنا، ولماذا لا تريد التحدث أمام الجنود؟

قام الملك عثمان واقفًا، وفي يده عصاه الكبيرة، الغريبة الشكل ليونس، يستدير بظهره إليه، كأنه قد تذكر شيئًا أحزنه، ثم قال بعد أن وقف خلفه: أنا من فلسطين، أشاهد كل يومًا المزيد من الموتى بيننا من قبل العدو، وقد اعتدنا على هذا منذ سنين، حتى مات كل فرد في عائلتي، كنت أشاهدهم أمام عيني، والدماء تسيل من جسدهم، وأسمع صرخات ألمهم وليس بيدهم شيء سوى المقاومة، كان شيئًا مأسويًّا عندما رأيت الظلم أمام عيني، ظل في قلبي الانتقام فقط لا سواه، فأجتمعت بأصدقاء من قبل المقاومة، ونفذنا

عمليات عديده معًا، وكنا كل يوم ننقص واحدا بعد الآخر، حتى صرت بمفردي، أنتقم لكل فرد في عائلتي وبلدي، وجاء يوم عرف جنود الاحتلال مكاني، فصرت انتقل بين الأنفاق، وعندما عرفوا مكاني أيضًا، اضطررت للدخول إلى نفق في مدينة (بيت ساحور)، كان يتحدثون عنه الناس كثيرًا، إنه نفق مخيف ولا يستحب الدخول له بمفردك، ولكن قد دخلته بمفردي للتخفي من عدوي، وعندما جلست فيه بضع ساعات، بدا شعوري بالخوف يزيد ولا أعلم لماذا، وعندما بدأت في سماعي للجنود بقربي، دخلت في عمق النفق أكثر، لأشاهد بابًا فولاذيا، اقتربت إليه أكثر، وقد لاحظت أن هناك جملة مكتوبة عليه، (لا تكن متفرجًا على الظلم، فافتح بابك بسم الله)، ثم بيدي فتحت الباب، وانبعث النور في وجهي، وبعد لحظات وأنا انظر حولي، كنت في هذه الغرفة، ولا أعلم كيف حدث هذا، تعجبت من هذه الغرفة كثيرًا وفي فضولي في معرفه ما حولي، لأنزل إلى الأسفل وألتقى بشخص لم أعرفه، فهلل بالصياح بأن الملك قد جاء، وأنا أقف مكاني متعجبًا، ثم جاء عدد من الأشخاص أمامي فجأة، وبعد جلوسي معهم عدد من الساعات، فهمت أنهم وزراء هذه المدينة، وقد رأوا رؤيه واضحة، بأن الملك المنصف لهذه المدينة سيأتي من غرفته، لأن الرؤيه كانت تقول، سيأتي الملك من غرفته، لأنه عانى من ظلم كبير، ليحكم المدينة بالعدل، ومنذ هذا الوقت صرت ملكًا، وحكمت بين الناس بالعدل دون أن أظلم فردًا فيها، فرح أهل المدينة بي، وقد أحببتهم أيضًا واعتدت عليهم، ولم ينشغل تفكيري كثيرًا في كيف جئت إلى هنا، ولم يسألني أحد عن هذا، كل ما شغل تفكيري هو انني أفعل شيئًا جميلًا لهؤلاء الناس فقط.

بات الأمر غريبًا إليه أكثر، وأكثر دهشة مما توقع، هذا العالم غريب، كأن هذا العالم يعرف كل من يأتي إليه، بشرط أن يحكم بالعدل، شعور مختلط، لم يعد يعرف كيف يشعر، بالحزن لأبيه الذي لم يره، أم بالسعادة عندما قابل شخصًا من عالمه، أم بالحزن على ما فعله القاسم في المدينة، اقترب من الملك أكثر، الذي انتهى من بكائه على أسرته وبلده، وضع يده على كتفه، خفف عنه ما تذكره عن أسرته وبلده، بلده التي يشاهدها كل العالم في صمت، فهو يعرفها جيدًا، ثم استدار الملك عثمان إليه، وقال بجدية وإصرار:

أريد معرفة ماذا حدث في بلدك، حتى تأتي إلى هنا.

عاد الاثنان إلى الجلوس أمام بعضهما، وسند الملك على عصاه وبيده الأخرى على الكرسي، منتبهًا إليه، ثم أخبره يونس عن المدينة، وعن كل فرد قابله فيها من أبيل رئيس الخدم والقائد النبيل وعُبيدة صديقه وشمس أيضًا، وكل ما مر به معهم، وفي الخطوات التي اتخذها داخل المدينة، حتى تطيح بالظلم الذي كان بداخلها، وأيضا أخبره بالقاسم وتوفان، اللذين كانا يطمعان في ذهب المدينة، وعندما جاء القاسم بجيش ليستعيد القصر، قد واجهته بسيفي الذي كان لديه القدرة التي أطاحت بجميع الرؤوس أمامه، وعندما رأى هذا السيف هرب الجميع، وبعد ذلك حكمت عليه بنفيه إلى الصحراء حتى الموت، ثم عاد كل شيء جميلا، وقد أخبره أيضًا إنه كان يبدل شخصيته إلى شخصية يونس الحقيقية لحبه لشمس، وعندما جاء موعد الاعتراف بكل شيءٍ إلى شمس، دخلت جنود كثيرة إلى المدينة، جنود مخيفه ترتدي أقنعة، كأنهم جميعًا شخص واحد، وكثرت الدماء في كل مكان،

وصرخت النساء والأطفال، يرددون بأن القاسم قد عاد، كنت قد وقتها في وسط المدينة ولا أمتلك شيئًا، كنت أجري مسرعًا لعلي أنقذ أحدهم، كنت مصابا بذراعي وصديقي عُبيدة يسندني، كنت أريد الوصول إلى قصري لآخذ سيفي، لأدافع به عن المدينة، وتذكرت أيضًا، أنه قد بدله أحد، لأنه كان غريبا عندما أمسكته آخر مرة، وأصيب عُبيدة أيضًا وسط الزحام وأخذه الجنود الصحراء مع الموتى.

ثم قال الملك عثمان: أكنت تمتلك سيفًا قويًا حقًا؟

قال: نعم، ولا أدري أين هو الآن، ولكن أخبرني أبيل رئيس الخدم، أن قوته لا تتفاعل مع أحد غير الملك.

قال الملك، بعد أن وقف أمام شرفته: حسنًا.

ثم قال بعد أن مرت دقائق صمت عليهما: أريدك أن تساعدني الآن.

ثم استدار الملك له، بهز رأسه بالموافقة، ثم قال: تعالى معي.

نزل الملك عثمان إلى ساحة قصره ليلًا، ويليه يونس خلفه، ثم قال بصوته الكبير الذي اهتزت أركان القصر له: عفران.

عندما سمع الجندي صوت ملكه، جاء مسرعًا متلقي النداء، وقال: أمرك يا مولاي.

قال الملك: أريد جميع قادة الجيش في الحال.

قال الجندي: أمرك يا مولاي، وهرول مسرعًا مندهشًا في غرابة من أمر

ملكه، يستدعي جميع القادة، وتيقن أنه هناك أمرًا مهمًّا، أتى عُبيدة في الحال، عندما سمع صوت الملك، يسأل يونس عما قرراه، ليجيبه الملك عثمان قائلًا:

سيتوجب علينا الحرب يا أخي.

نظر عُبيدة إلى يونس، فأكد برأسه على كلام الملك، فزاد الازدحام داخل ساحة القصر، من قبل قادة الجيش، الذين أتوا في لحظات معدودة، مسرعين إلى ملكهم، يقفون أمامه بثبات، تحرك الملك عثمان إلى عرشه، ينظر إلى القادة الخمسة فردًا فردا، ضرب بعصاه على الأرض بقوة، موجهًا كلامه إليهم جميعًا:

أريد جمع جميع جنود المدينة في الصباح الباكر، غدًا سنحرر مدينة طال ظلمها، غدًا سننتصر بكل قوتنا، غدًا سنعيش أو نموت من أجل مدينة الباب.

***

سرعان ما مر الليل في مدينة عفرين، وجاءت الشمس بنورها على المدينة، وكل من في المدينة من أفراد وجنود وقادة الجيش مستيقظون، اجتمع الجيش كاملًا أمام قصر الملك عثمان، في ثبات على أحصنتهم، وبطريقتهم المنتظمة أمام قادتهم، بزيهم الأحمر الداكن الموحد، بسيوفهم ودروعهم ورماحهم الصلبة، وكل منهم على رأسه تاج، مثل تاج الملك، بدأ أهالي المدينة في التساؤلات بينهم، في غرابة وفضول عما يحدث، ولم تأت إليهم إجابة، حتى إن عددًا كبيرا من الجيش لم يفهم شيئا مما يدور حوله، ونظر يونس وعُبيدة من نافذة الغرفة، بعد أن أعطى لهم الملك عثمان زيا كالفرسان مثل باقي الجنود،

شاهدا الكم الكبير من الجنود المنتظرة أمام القصر، حتى نال إعجاب الملك عثمان أكثر في ترتيبه ونظامه في أمور المدينة، حتى تعجب عُبيدة من الجنود قليلًا في ارتدائهم جميعًا نفس تاج الملك، كأنهم جميعًا ملوك حقيقيون، شغل تفكيره أن هذه أول معركة حقيقية له، وليس معه سيفه القوي، وإنما أخوه عُبيدة بجانبه، والملك عثمان أيضًا الذي أحبه من أول لقاء له، زاد الحماس داخله أكثر، عندما تذكر أيامه في عالمه التي لم يفعل فيها شيئًا يستحق، وأنه هنا لسبب قوي بالدفاع عن بشر لم يستحقوا الموت، حتى إن كان فردًا واحدا، فسيذهب كل هذا الجيش للدفاع عنه بكل قوته، حتى مرت الدقائق على صمتهم، ثم دخل الملك عثمان إليهم يخبرهم إنه حان الوقت، نزلوا الثلاثة إلى ساحة القصر، حتى التقى الملك بالقادة الخمسة الذين ينتظرون أوامره، وشكلوا دائرة بينهم وفي منتصفها منضدة كبيرة عليها خريطة، وكان الملك يقف بعصاه، وعن يمينه يونس وعن يساره عُبيدة، واكتملت الدائرة بالقادة الخمسة الحاضرين، صمت الجميع منتظرًا كلمة ملكهم، ثم قال الملك عثمان مشيرًا إلى الخريطة بيده، وهو ينظر إلى يونس:

هذه مدينة عفرين التي تأخذ شكلا مربعا كما هو واضح، وهذه المنطقة الواسعة هي صحراء عفرين، خارج المدينة تمامًا.

ثم أشار بأصبعه إلى نقطة تتوسط الصحراء وقال:

وهذه النقطة التي أخذكم الجنود منها ليلًا، ليس بها مخاطر وتتبع الصحراء أيضًا.

انتبه إليه يونس جيدًا، ولم يعد يرى شكل مدينة الباب الدائرية على

الخريطة أو أي شيء آخر، فقال: حسنًا، أين هي مدينة إلباب؟

ذهبت يد الملك عثمان إلى آخر نقطة في الخريطة، كان فيها جبلان بينهما طريق مستقيم فقط، فقال: إنها هنا، بين الجبلين، في نهاية هذا الطريق، ولا طريق آخر يؤدي إلى أي مدينة ثانية.

ثم قال عُبيدة بعد أن رأى عدد من النقاط الملونة باللون الأحمر: ما هذه النقاط الحمراء؟

فقال له أحد القادة: هذه مخاطر صحراء عفرين، الرمال المتحركة.

ثم قال للملك: وكيف سنذهب اذن؟

قال الملك عثمان بعد أن أشار بيده إلى طريق آخر: هذا الطريق آمن ومختصر، سيأخذنا إلى الطريق الذي بين الجبلين.

قال الملك ليونس: أخبرتني عندما رجع القاسم كان معه جنود غريبو الأشكال؟

قال: نعم.

قال الملك: كيف؟

قال يونس بعد تذكره قليلًا: كانوا يرتدون أقنعه مخيفة، وشكل جسدهم واحد، كانوا بلا عقل تمامًا، وعندما أصابني أحدهم في ذراعي، لمعت عيناه إلى دمائي.

رفع الملك حاجبيه بغرابة إليه، والتفت القادة الخمسة إلى يونس والملك

عثمان في تعجب، ثم قال الملك أخيرًا: جنود (أسنا)!.

ظل القادة متعجبون مما سمعوه، كانوا يظنون جميعًا إنه قد مات منذ زمن، واستكمل الملك: كان أسنا أيضًا يريد أخذ هذه المدينة، وقد واجهت جنوده في معركتي الأولى هنا، ومنعته من دخولها، ولكن كيف دخلت هذه الجنود مدينتك مجددًا، قد أتت الأخبار من سنوات بأنه قد مات، ومن الصعب الدخول إلى أي مدينة بسهولة.

ثم قال عُبيدة بعد أن تفاجأ أيضًا مما سمعه: نعم، قد فهمنا إنه مات.

واستكمل الملك عثمان حديثه وقال: فهمت من وزراء المدينة هنا، أن أسنا يمتلك قدرات كبيرة، ولكن هذه القدرات لا يستطيع استخدامها عند دخوله لأي مدينة، وكأن المدن جميعها تمنعه، ربما بينه وبين المدن حاجز قوي، وإن كان الجنود قد دخلوا حقًا، فسنواجه كثيرًا منهم هناك.

صمتوا جميعًا يفكرون فيما قاله الملك، ثم قال أحد القادة الذي يقف أمام الملك: لن نيأس يا مولاي، سننتصر عليهم مثلما انتصرنا من قبل.

وقال الملك عثمان كلمته الأخيرة قبل المغادرة خارج المدينة إلى قلب المعركة:

حسنًا، هيا بسم الله.

***

مدينة الباب

في اليوم التالي، قد علم كل من في القصر والقادة وجميع الجنود أن اليوم معركة، فاجتمع من تبقى من القادة في ساحة القصر، والكثير من الجنود خارج القصر ينتظرون أمام بوابته، بأجسادهم الطويلة، وسيوفهم ودروعهم القوية، على فيلتهم العملاقة الذي صار هديرها عاليا، وأخبرهم القاسم إنهم سيذهبون الآن خارج أسوار المدينة، وسيتجهون إلى مدينة عفرين الذي بها الملك السابق، حتى يواجهوا جيشها ويقتلوا هذا الفتى، وقف القائد أبو عُبيدة في زنزانته يمسك قضبانها، يريد فهم ماذا يحدث في المدينة، يحاول أن يسال أي جندي ولا أحد يريد أن يجيبه، حتى خرج الجنود خارج السجن، وبقى آخر جندي كان ذاهبًا مسرعًا، حتى وقف أمام القائد وقال، بابتسامته التي تدل على سخريته:

سنذهب الآن للقضاء على ملكك أيها القائد.

لم يفهم أبو عبيدة بماذا يقصد الجندي بقوله هذا، حتى أخرج يده خارج القضبان، كأنه يتحدث معه وقال: أي ملك أيها الجندي الخائن؟

قال الجندي: الفتي أيها القائد.

تعجب القائد من حديث الجندي له، وفهم أن يونس ما زال حيًا، فابتسم للجندي بعد سعادته التي أتت من داخله، ثم بيده الإثنين أمسك برأس الجندي، وضربها في القضبان الحديدية، وقبل أن يقع أرضًا أمسك به، ثم

أخذ عدة مفاتيح من ملابسه، ثم وقع الجندي أرضًا ممسكًا برأسه من شده آله، أخذ أبو عُبيدة المفاتيح سريعًا ويفتح بها بوابة زنزانتة، وقف أمام الجندي بعروقه البارزة من جسده، ثم قام أخذ سيف الجندي المعلق في خصره، ثم تذكر كل من ماتوا أمامه في المعركة، من نساء وأطفال وكبار سن، وصوت صريخهم العالي، وطلب النجاة لهم، ثم قال للجندي وهو يمسك برأسه:

كثرت دماء المظلومين كثيرًا أيها الجندي الخائن، والآن ستسفك دماء كل من سفك دماء هؤلاء الناس.

ثم أمسك بالسيف جيدًا، وطعن الجندي في منتصف صدره، حتى صرخ الجندي بصوت عالٍ، ومات في الحال، سالت دماء الجندي على سيف أبو عُبيدة وهو ينظر لها ويقول: هذه الصخرة الأولى.

ذهب ممسكًا بسيفه في ممر السجن، حتى جاء يفتح زنزانة أبيل، الذي كان متعبًا من شده ألم جسده، من طعنة القاسم له، أمسك القائد به مسندًا به على كتفيه، ثم قال أبيل له: ماذا يحدث يا بني؟

قال القائد: يونس حي، وهناك معركة الآن.

ابتسم أبيل على الرغم من شدة ألمه وقال: كنت متيقنًا من هذا يا ولدي.

ثم أخرج أبيل خارج السجن، وربط جرحه، ثم عاد مجددًا إلى السجن،وفتح كل زنازين جنوده الذي كانوا بجانبه يوم المعركة الأولى، وعندما خرج كل الجنود، أخبرهم أبو عُبيدة أن معركة ستحدث الآن ويجب أن يستعدوا، وقبل أن يخرج القائد من السجن، صعد الطابق الآخر من

السجن، لإخلاء جميع زنازين السجن، ثم نظر إلى زنزانة بداخلها فتاة شابة، تسند ظهرها على الحائط في استسلام، اقترب منها وقال وهو يفتح بوابتها: هيا سريعًا أيها الفتاة.

كانت ساكنة لا تتحرك من مكانها، فقالت له دون أن تنظر إليه: من أنت؟

فقال بعد أن دخل إليها ووقف أمامها: هيا الآن، هناك معركة على وشك الحدوث مع القاسم والملك.

فتحت عينها بغرابه لترى إنه القائد النبيل الذي يقف أمامها، الذي كان يحبه الناس، ثم قالت بتعجب: أي ملك أيها القائد؟

فقال القائد في الحال: ملك مدينة الباب حي ولم يمت، هيا بسرعة حتى نذهب لمساعدته.

فذهبت معه مسرعًا خارج السجن، حتى التقى القائد بأبيل مجددًا خارج السجن ومعه شمس، وقام أحد جنود أبو عُبيدة بجلب الماء إلى أبيل وشمس، اللذين ظهر عليهما التعب، وقف القائد بين جنوده العشرة وأبيل وشمس، يقول موجهًا كلامه إلى الجنود:

حتمًا سيخرج القاسم الآن إلى المعركة، ونحن سنستعد بجلب سيوفنا ودروعنا ونذهب من خلفه، ونحارب من أجل الملك من خلف جيش القاسم.

حتى قال أحد الجنود: سيدي، نحن قليلون جدًا.

قال أبو عُبيدة بعد أن نظر إلى الجندي: إن كان موتي اليوم في المعركة فهذا

أفضل من موتي في زنزانتي بمفردي.

حتى تحمس الجندي قليلًا وقال: لك الحق سيدي، وسننتصر اليوم بإذن الله.

بعدها نظر القائد إلى أبيل وشمس وقال: أنتم الآن أحرار، فاذهبوا إلى ملجأ آمن، نظر إليه أبيل وقال: يجب أن اذهب إلى القصر الآن.

قال القائد: لا يستحب الآن، القاسم على وشك الخروج من القصر.

قال أبيل: حسنًا، سأنتظر في مكان آمن حتى يخرج.

ثم أخذه أحد جنود أبو عُبيدة، وابتعد عن أعين جنود القاسم بعيدًا، ثم نظر القائد إلى شمس التي ما زالت واقفة أمامه وقال: وأنت يا فتاة فلتذهبي إلى بيتك الآن.

وقفت شمس أمامه تقول: سأشارك في هذه المعركة معكم أيها القائد.

نظر إليها بغرابة مما سمعه وقال: كيف هذا؟

قالت شمس: أعرف استخدام السيف، ولم يبق أحدًا من أهلي جميعهم ماتوا.

قال القائد: لا أريدك أن تتأذي، هذه معركة كبيرة.

قالت شمس بتصميم: لا عليك، أريد المشاركة فحسب.

مرت دقائق على القائد يفكر في أمرها، ثم قال أخيرًا: حسنًا، وسنرتدي جميعًا ملابس مختلفة عن جنود القاسم وأقنعة، لعدم تفرقنا، ولفهم الملك من

الجهة الأخرى أننا في صفه.

ذهب بهم القائد في بيت آمن، بعيدًا عن أنظار جنود القاسم، واستعدوا في الحال، من أجل معركة تحدد مصير المدينة.

المعركة الثانية

قد خرج القاسم بجيشه الضخم خارج أسوار المدينة، إلى الطريق المؤدي إلى الجبلين، بالفيلة الكبيرة التي يركبها الجنود التي تمشي ببطء وصوت هديرها عال، وقد لاحظ أحد جنود أبو عُبيدة جيش القاسم وهو يخرج بعيدًا عن المدينة، وأبلغ قائدة في الحال، واستعد أبو عُبيدة وجنوده وشمس معهم، ويرتدون زيًا مختلفا كما أمر القائد، وأقنعة على وجوههم، وأتى جندي آخر ومعه عدد من أهل المدينة على أحصنتهم السريعة، نزل إليهم القائد ومعه الجنود وشمس، وهم مستعدون للمعركة، ثم نزل فرد من الناس من على حصانه أمام القائد، كان رجلًا في الخامسة والأربعين من عمره، أتى أمام القائد وهو يمد لجام الحصان إليه ويقول:

سيدي، هذه الأحصنة قوية وسريعة، ستذهب بكم سريعا خلف القاسم، وكان الله في عونكم.

أمسك القائد أبو عُبيدة لجام الحصان ونظر إلى الرجل وقال:

أنت رجل صالح، وسنذهب ونأتي بالنصر بإذن الله.

أطال الرجل نظره إلى القائد ولم يرد، حتى تعجب القائد من ذلك، وقال:

ما بك، هل أنت بخير؟

قال الرجل بعدما ابتسم للقائد: نعم بخير، تذكرت ولدي فقط وهو صغير، وبعدها لم أره منذ قدومي إلى هنا.

قال القائد وهو يركب حصانه ومعه جنوده وشمس يركبون أحصنتهم: لا عليك، هذه المدينة فقدت الكثير من أطفالها وشبابها، فكن على يقين بالله أنك ستراه يومًا ما.

ثم ذهب القائد مسرعا وخلفه جنوده، متجهًا خلف القاسم، خارج أسوار المدينة.

***

قد خرج أيضًا جيش الملك عثمان خارج مدينة عفرين على أحصنتهم السريعة، وكان الملك في المقدمة على حصانه ويمسك بعصاه، وبجانبه يونس يمسك بسيفه من ناحية اليمين، وعُبيدة في الناحية الأخرى وفي يده سيفه يمسكه بقوة، ثم باقي القادة والجيش خلفهم، يتجهون إلى الطريق المختصر المؤدي إلى مدينة الباب بين الجبلين، وبعد مرور الوقت من تقدمهم إلى الطريق المختصر، هدأ الملك عثمان من سرعة حصانه، ويليه جيشه ويونس وعُبيدة، حتى انحدر الملك عثمان إلى جهة اليمين إلى الطريق المراد به، حتى توقف عنده بحصانه، واقترب يونس إليه متعجبًا وبعض قادة جيشه، ثم سأل يونس الملك عن سبب وقوفه في بداية الطريق، فقال الملك بعد أن نظر إلى أعلى السماء، ووجد صقر أسنا محلقًا بها: هذا صقر أسنا الذي ينظر إلينا.

نظر يونس وعُبيدة وقادة الجيش في السماء، ليروا الصقر واقفًا فوقهم تمامًا كأنه شخص ينظر لهم.

قال عُبيدة موجهًا حديثه إلى الجميع: نعم إنه هو، هذا يدل أن أسنا يرانا الآن.

قال أحد القادة: هذا يدل أيضًا أن القاسم مستعد لنا الآن.

ليقول الملك: نعم.

قال: وماذا نفعل الآن؟

اتجه الملك عثمان بحصانه أمامهم، يفكر فيما يفعله، مرت دقائق عليه وهو يمسك بعصاه، ثم استدار لهم وقال لهم جميعًا: سنغير خططنا الآن.

تقدم يونس بحصانه أمامه وقال: كيف؟

قال الملك: من الرغم من قوه القاسم وجيشه طوال القامة، ومن المؤكد أيضًا إنه مستعد لهذه المعركة، فحتمًا سيأتي من هذا الإتجاه المختصر للبعد عن مخاطر الصحراء.

قال يونس: نعم، هذا احتمال كبير.

أكمل الملك حديثه وقال: الآن، سنقسم الجيش إلى جيشين، أنا سأدخل بجيش إلى الصحراء، وأنت يا يونس إلى هذا الطريق، حتى نضيق عليه ونهزمه.

تعجب بعض القادة من قرار ملكهم، فهذا يعني موته في مخاطر الصحراء والرمال المتحركة، ليقول يونس بجدية: كيف تدخل إلى هناك؟ هذه الصحراء مميتة.

قال الملك عثمان: هذه معركة وإن أراد الله موتي فسأموت حتمًا.

وقف يونس وعُبيدة يفكرون فيما قاله الملك، ثم أدرك أن هذه مدينة

وهو ملكها، وإن كان هناك أحدًا سيضحي من أجلها، فحتمًا هو من يفعل ذلك، لن يكون فردًا آخر، وإن آتاه الموت هناك، تقدم أمام الملك عثمان وقال بـإصرار:

لم تذهب أنت إلى الصحراء، أنا من أفعل ذلك، أنت تمتلك مدينة ليس بوسعها فقدان ملكها، إن كان أحد سيضحي لهذه المدينة فهو أنا، ملكها هو من يفعل ذلك.

نزل الملك من على حصانه، ثم نزل يونس وعُبيدة من على أحصنتهم، ثم قال الملك بعد تصميم يونس على ما قاله: هذه الصحراء خطيرة، من الصعب أن تخرج منها.

قال عُبيدة: نعم يا أخي، لا أريد فقدانك.

قال للملك: وخطرة عليك أيضًا، لا أريد فقدانك يا عثمان، هذه مدينتي، وأنا من أفعل ذلك.

أدرك الملك عثمان أنه لن يرجع عن قراره، ثم مد يده بعصاه، وقال: حسنًا، أمسك هذه العصا.

اندهش بعض قادة الجيش من ملكهم بإمداد العصا إليه، وأدركوا أيضًا أن ملكهم سيضحي من أجل هذه المدينة.

قالل يونس بغرابة: ما بهذه العصا؟

قال الملك: هذه عصا مدينة عفرين، كانت سببًا في انتصاري على جيش أسنا بالكامل، بوسعها فعل الكثير، فإنها حية، تدرك من يمسك بها، يكفي

أن يكون شخصًا عادلًا، ستساعدك كثيرًا في هذه المعركة.

نظر إلى عُبيدة في دهشة، يفكر فيما تفعله هذه العصا، مثل سيفه الذي كان بوسعه قطع آلاف الرؤوس في لحظة واحدة كما أخبره أبيل، ثم قال أخيرًا للملك عثمان، بعد أن أطال النظر إلى عصاه:

أدركت مؤخرًا أن قوتي ليس فيما أمتلكه، وإنما قوتي بداخلي وفي ذاتي، وبقوة إيماني في انتصاري في هذه المعركة.

ثم مد يده لإرجاع يد الملك عثمان الممدودة بالعصا وقال:

لن أخذ هذه العصا، فإنها لك، وسينصرنا الله، وأنا على يقين بهذا.

صدرت فجأة صوت هدير الفيلة العالي، ثم نظروا فجأة إلى جندي يركض مسرعًا إليهم، ويقول: مولاي الملك، جيش القاسم بين الجبلين الآن، وعددهم كبير.

قال يونس له في الحال: وأين جيش أسنا الذين يرتدون أقنعة؟

قال الجندي: لا أثر لهم.

نظر الملك عثمان إليه، ثم احتضنه سريعًا، وقال: سنتقابل مجددًا بإذن الله يا أخي.

قال يونس: بإذن الله يا أخي.

ركب يونس وعُبيدة أحصنتهم، وشد سيفه المعلق في خصره بقوة، ثم ذهب مسرعًا في الاتجاه الآخر المؤدي إلى صحراء عفرين، ومعه عُبيدة واثنان

من القاده، ونصف جيش الملك عثمان، ثم صعد الملك على حصانه بحركة سريعة، ثم شد لجام الحصان، حتى ينطلق إلى الطريق المختصر ومعه باقي جيشه، ليركض مسرعًا في الأمام دون النظر خلفه.

***

وقف القاسم وجيشه في نهاية الطريق بين الجبلين، ينظر إلى الطريق المختصر، والطريق الآخر الذي به الصحراء، وقال لبعض القادة الذين يقفون أمامه، وهو يشير بيده إلى الطريق المختصر: حتمًا سيأتي الفتى من هذا الاتجاه، ولن يجرؤ على دخول الصحراء، إن بها كثيرًا من المخاطر، وهو الآن دون سيفه.

نظر له الجنود بالموافقة على حديثه، ثم قال القاسم بصوت كبير: هيا بنا.

رفعت جميع سيوف الجنود إلى الأعلى مهللين إلى القاسم، منطلقين في الاتجاه المؤدى إلى الطريق المختصر.

بعد دخول يونس وعُبيدة ونصف جيش عثمان إلى صحراء عفرين، كان عُبيدة قلقًا بشأنه وبما سيحل بهما من مخاطر الصحراء، كانوا يسرعون بخيولهم على أطراف الصحراء، بعد حديث دار بين أحد القادة ويونس، بأنهم إذا دخلوا عمق الصحراء فهذا يزيد من مخاطرها، وإن الأطراف التي يتجهون منها بها القليل فقط من المخاطر، أسرع أكثر للحاق بعثمان وجيشه، وأشتدت الصحراء بغبارها ورمالها، وصرخ أحد الجنود من خلفه فجأة وهو يسقط من حصانه، وقف يونس ومن معه ينظرون إلى الخلف، وأسرعت الجنود من الخلف بخيولهم بعد فقدان أحد الفرسان منهم، رأى ما لا يرى،

غبار كثيف ورمال تتحرك إليهم بسرعة قصوى، ثم ضرب حصانه بكل قوته بأرجله لينطلق مسرعًا بين الجيش، تحركت الرمال خلفهم أكثر، وبدأ الجيش في التساقط فردًا فردا، من خلف يونس الذي زاد في سرعته أكثر هو وعُبيدة الذي بقي جانبه، تفاجأ يونس بعرقلة رجل حصانه وقبل أن يسقط من عليه، لحق به عُبيدة وأمسك به، وركب خلف عُبيدة على حصانه، ليزيد عُبيدة من سرعته قبل لحاق الرمال بهم، نقص عدد ليس بالقليل من الجنود من مخاطر الصحراء، ماتوا في لحظات، أتى أحد القادة بجانب يونس وعُبيدة بحصان آخر فارغ، ثم قال عُبيدة:

يونس أمسك لجام هذا الحصان.

اقترب الحصان أكثر إلى يونس وعُبيدة، وقال الأخير له: يونس اقفز الآن عليه.

أمسك بلجام الحصان بصعوبة، ثم قال (بسم الله) وقفز من حصان عُبيدة إلى الحصان الآخر بسلام، ثم زاد سرعته وسط عُبيدة والقادة، وانطلق بينهم ممسكًا سيفه بقوة.

بعد قليل من مرور جيش القاسم من الطريق المختصر، تعجب القاسم من هدوء الطريق فلا يصدر منه أي صوت أو حركة، وبدأ في التفكير بأن أسنا من الممكن أن يكون كاذبًا، ويريد هلاكه، ثم في لحظة اهتزت الأرض من تحته ثم نظر إلى الأمام، وفوجئ بأنه ليس الفتى الذي ينتظره، وأنه جيش عثمان قادم إليه بسرعته القصوى، غضب القاسم من تلاعب هذا الفتى به، وزاد من حماس جيشه ويتقدم في الأمام إلى جيش عثمان الذي اقترب منه

أكثر بسرعته، حاول القاسم النظر بين الرجال ليري الفتى ليقتله، ثم اقترب الجيشين أكثر وأكثر من بعضهما، ثم رفع عثمان عصاه في السماء التي أضاءت نورها الأبيض اللامع، دخل الخوف والقلق إلى جيش القاسم، الذي فتح عينيه عندما رأى عثمان بعصاه، دخل الملك عثمان بين الجيش يلوح بعصاه بين جنود القاسم التي سالت بينهم الدماء، دخل الجيشان في صدام كبير، وقتل جنود القاسم عددًا كبيرًا من جنود عثمان، وضربت الفيلة الجنود بأرجلها لتوقعهم أرضا، صار الملك عثمان وسط جيش القاسم يقتل المزيد منهم بعصاه، وفي لحظة تجمع حوله عدد من جنود القاسم، ثم أتى أحد الجنود وضرب عصاه لتقع أرضا، ثم أخذ الملك سيفه من جانبه وبدا في المواجهة أمامهم، وقتلهم فردًا فردا، حاول النظر إلى عصاه التي اختفت عن نظره في لحظات ولم يلقها، ثم أتى أحد الجنود من خلفه وطعنه في ذراعه وخرجت منه الدماء، بعد أن وقع سيفه أرضا، أتى فيل كبير وضرب حصانه، ثم سقط على الأرض ممسكًا بذراعه التي تسيل منها الدماء، وقف بين المعركة يشاهد كم من جنوده قُتل، في ذات الوقت أتى جندي من جنود القاسم أمامه بسيفه، وطعنه في كتفه وزادت الدماء منه، نزل على ركبتيه متألما، ثم اقترب الجندي إليه أكثر وقام برفع سيفه أمام رأسه، وفي الوقت نفسه نظر إليه عثمان وعلى وجهه ابتسامة، ثم تيقن إنه حان لقاء ربه، وأغلق عيناه في وداع هذا العالم، دخل في اللحظة الأخيرة ممسكًا بسيفه بقوة، قبل قتل الجندي للملك عثمان، ضرب الجندي بسيفه وقطع رأسه في الحال، ثم فتح عثمان عيناه فوجد الجندي مقتولًا أمامه، تقدم إليه يونس ممسكًا بعصا عثمان الذي وجدها أرضا بين الجنود، وقال: عصاك يا أخي.

تعجب الملك عثمان من ظهوره أمامه مرة أخرى وقال: كيف هذا؟

قال مسرعًا بين الجنود: سأخبرك عندما ننتهي من هذه المعركة.

نظر عثمان حوله بعد أن صعد إلى حصان أحد جنوده وربط جرحه، بظهور عُبيدة وأحد القادة وجنوده الذين آتوا من الصحراء، دخلوا سريعًا وسط المعركة بشجاعتهم الكبيرة، يقاتلون جنود القاسم بمهارتهم العالية، وانبعث الأمل من جديد في قلبه، وبدأ في قتل جنود القاسم بعصاه رغم إصابته في ذراعه وكتفيه، وفي وسط تطاير رؤوس الجنود هنا وهناك، كان القاسم يقتل المزيد من جنود عثمان، انتبه يونس إليه وسط الزحام وتقدم إليه بحصانه، نظر القاسم خلفه وقد رآه أمامه بسيفه، وقال بغضب: ألم تمت أيها الفتى العنيد؟

قال: هناك حكمة إذن.

دخل الاثنان في مبارزة كبيرة في قلب المعركة، وبدا القاسم بالهجوم بوحشية، صد يونس كل ضربة منه، ثم حاول فعل ما تعلمه من عُبيدة في استخدام السيف، ثم هاجم يونس بقوة، وقام بجرح القاسم في جانبه بقوة شديدة، غضب القاسم أكثر، وهجم عليه بسيفه من كل اتجاه، وطعنه في ساقه الذي سالت منها الدماء، لم يستسلم أحد منهم وعادا يهاجمان بقوة وأكثر شراسة، وكل منهم مصاب بجرح عميق، وفي ظل المبارزة بين القاسم ويونس، والملك عثمان وجنود القاسم، دخل مسرعًا كالطير وسط الزحام بين جميع الجنود، يطيح بكل من أمامه بسيفه، يمينًا ويسارًا، كان القائد أبو عُبيدة وجنود وشمس بأقنعتهم، وزيهم المختلف عن جميع الجنود، يطيحون

برؤوس كل من حولهم بمهارة كبيرة، ليزيد عدد قتلى جنود القاسم أكثر مما كانوا عليه، وازداد حماس جنود الملك عثمان عندما رأوا هذا القائد كثيرًا، وقد قتلت شمس العديد من الجنود لثبت بأنها فتاة قوية تجيد المبارزة، نظرت خلف قناعها في غرابة إلى الملك الذي يواجهه القاسم، وقالت: يونس؟!

ظلت المواجهة بين القاسم ويونس مستمرة، بعد أن حاز الانتصار جيش الملك عثمان، الذي يقاتل بكل قوة، والقائد أبو عُبيدة الذي غير مجرى المعركة، برغم عدد جنوده القليل، وفي ظل تبعثر الدماء، وعدد الأموات بين الجيشين، أتى جندي من جنود القاسم، واتجه من خلفه ممسكًا بسيفه، ثم أدخله في منتصف صدر عبيدة بكل قوته، نظر القائد أبو عُبيدة إليه، الذي شاهد هذا المشهد من بعيد، ثم اتجه نحو الجندي بسرعة شديدة وطعنه في رقبته، ومات الجندي في الحال، ثم نزل من على حصانه يتحسس جرح عبيدة الذي تسيل منه الدماء، وقال له وهو يربط منتصف صدره بقطعة قماشية:

ستعيش يا عُبيدة بإذن الله، أنت فتى قوي.

لم يستوعب ما قاله القائد، ثم فقد وعيه في الحال دون إدراك، حمله القائد مسرعًا على كتفيه لابعاده عن المعركة في مكان آمن، ثم صعد إلى حصانه مرة أخرى وقلبه مليء بالغضب، ودخل عمق المعركة بقوه سيفه التي أطاحت بكل من أمامه، واشتدت المعركة أكثر بين الجيشين، وكل منهما يقاتل بكل قوته، ثم صاح في انفعال شديد يحمس جنوده الباقين وشمس، حتى ظل القاسم ويونس يتبارزان بشدة، وفجأة وقع من على حصانه وفقد سيفه، نزل القاسم من على حصانه أيضًا وتقدم إليه، وهو يمسك بسيفه جيدًا، حتى

رجع يونس إلى الخلف، وفوجئ بجدار خلفه ولا مفر من القاسم الذي تقدم أكثر إليه، ليقول القاسم قبل توجيه أي ضربة له:

الآن ستموت مثل باقي الملوك الذين أتوا إلى هنا، الآن سآخذ حق أبي وأمي اللذين ماتا فقرا وجوعًا في هذه المدينة اللعينة.

نظر يونس في عينيه جيدًا، وقبل أن يقول أي شيء، ألقى بنظره خلف القاسم ليأتي إليه سيف ملقى من أحد الأشخاص، أمسك به جيدًا أمام القاسم، ليوجه له القاسم ضربة سريعة قد تفاداها بجانبه، ثم استدار إليه بعد أن ثبت سيف القاسم في الجدار، ونظر إليه القاسم، ثم طعنه يونس القاسم بسيفه الذي غرزه في منتصف بطنه، ظل واقفًا أمامه ينظر في أعينه وسيفه بداخله، ثم نظر إليه القاسم بعينيه الواسعتان، يتحسس وجه بيده المرتعشة، ثم أدمعت عيناه وقبل أن يقول كلمته الأخيرة على يد يونس، ذهبت روحه إلى لقاء ربه في وداع هذا العالم، ومات بين يد الذي تعجب من نظراته الأخيرة قبل موته، رأى يونس خلفه القائد أبا عُبيدة أمامه، الذي لحق به في اللحظة الأخيرة برمي سيفه إليه، وشكره في الحال، ثم صعد على حصانه مرة أخرى، وقد صاح أحد الجنود بأن القاسم قد مات، لتهدأ المعركة شيئًا فشيئا، ونزل جميع جنود القاسم مستسلمين بين جنود عثمان ويونس، وانتصر جيش عثمان ويونس وأبو عُبيدة بكل قوتهم، آتى يونس وأبو عُبيدة بجانب الملك عثمان الذي ضمد جرحه أحد جنوده، واطمئن عليه في الحال، وقد رأى إنه بخير، نظر بعد أن توقفت المعركة تمامًا إلى عُبيدة الذي لم يره، قال يونس مسرعًا للملك عثمان: أين عُبيدة؟

ذهب القائد أبو عُبيدة من أمامهم، فجأة، تذكر أن عُبيدة قد أصيب في المعركة، ثم شاهد الجميع القائد وهو يأتي حاملًا عُبيدة على ظهره، ذهب إليه يونس مسرعًا، ثم ذهبت شمس خلفه وهي ترتدي قناعها، أمسك بعُبيدة يحاول أن يفيقه ويتحسس جرحه ولكنه كان فاقدًا الوعي، طمأنه القائد بأنه ما زال حيًا ولكن يجب أن يذهبوا إلى المدينة فورا لعلاجه، أتت شمس أيضًا بجانبه وبكت فور قدومها إليه، طمأنها القائد أيضًا، ثم نظر يونس إلى أعينها في اندهاش شديد، نظرت هي الأخري وقد طال النظر بينهما، ليقول يونس: شمس!

أدركت شمس أن صوت قلبها لم يكذب عليها أبدًا، وقف الاثنين أمام بعضهما، ثم خلعت شمس قناعها أمامه وقالت: يونس!

ثم أكملت: ظننت أنك قد مت، بعدما اختفيت عن المدينة، ماذا حدث لك لم أفهم؟

أخبرها بحقيقته، وأنه ملك المدينة، وكل الأحداث الذي مر بها منذ وصوله إلى هنا، أما عن حبه لها، أخبرها إنه كان يريدها أن تحب شخصيته الحقيقية كما هو وليس الملك، وكان عُبيدة كان يعلم ذلك، وقد أحبها حقًا من قلبه، وأحب لقاءهما ليلًا مع عُبيدة، كان هذا الوقت الممتع له، ثم تقدم إليها وقال:

أريدك حقًا في حياتي.

أتت له فرحًا بعودته بعد فقدانه، وقالت له: أنا أيضًا أريدك كثيرًا.

ثم حمل القائد عُبيدة على حصانه متألمًا بجرحه، ثم صعد يونس على حصانه وشمس أيضًا، يستعدون للدخول للمدينة، ثم قال الملك عثمان بصوت عالٍ:

سنذهب الآن إلى إلباب، هي بنا.

تقدم في المنتصف بين الملك عثمان والقائد أبو عُبيدة ممسكًا بسيفه، يتجهون نحو المدينة بجيش عثمان، وعدد من جنود مدينة الباب المستسلمة.

***

اللقاء الأخير

شهدت المدينة تدهورا كبيرا بين جنود إلباب، بسبب أحد الجنود الذي أتي من المعركة هربًا، وأخبر الباقي أن جيشهم قد هزم من قبل جيش عثمان، أدرك الجنود بأنه يجب الاستسلام لا محالة، بسبب عددهم القليل، ثم استعدوا لهذا بوقوفهم أمام بوابة المدينة في ممر شرفي، لقدوم الملك المنتصر أيًّا كان من هو، فهو يحق له أن يكون الملك بنصره على الجيش الآخر، وفي ظل هذه الأحداث كان أبيل قد دخل القصر، ثم فتح غرفتة ودخل إليها، ثم ذهب إلى كرسيه الكبير وأزاحه من مكانه، رفع بساط من على الأرض، وفتح صندوقًا مثبتًا في الأرض، وأخذ كتاب مدينة الباب الذي خبأه، ثم فوجئ أن الكتاب قد أضاء بنوره الأبيض اللامع، ثم قال محدثًا للكتاب كأنه شخص أمامه:

كنت أعلم أنك حي تعلم المستقبل، فلم يُضء نورك منذ القدم، فالنصر لك حقًا يا يونس وهنيئًا لك بما فعلته في مدينة إلباب.

ثم أخذ نفسًا طويلًا وقال: الآن حان موعد رحيلك يا ولدي.

أخذ أبيل الكتاب وذهب خارج القصر منتظرًا يونس، الذي أيقن إنه هو من سيأتي، واجتمع كل من في المدينة من نساء ورجال، وعدم إخبارهم الجنود بشيء عن الأحداث التي صارت من معارك، أمام القصر وبوابه المدينة الذي وقفي أمامها الجنود، وقفت المدينة بأكملها في صمت بين بعضهما، وسمع الأهالي والجنود خطوات جيش قادم من إتجاه الجبلين، أطلت كل الأنظار

على بوابة المدينة الكبيرة التي قد فتحها الجنود، ثم دخل الجنود المستسلمون على فيلتهم، وبدا الصياح من قبل أحد الجنود الذين ظن إنهم انتصروا، ثم نزل الجنود من فيلتهم وسط الأهالي وظهر على وجوهم الحزن، وأمام البوابة حيَّوا الملك القادم، ودخل يونس بسيفه بين الملك عثمان والقائد أبو عُبيدة بين الممر الشرفي، صاح الأهالي فرحًا بعودة يونس والقائد وكل من معه، وشعر يونس بالنصر أول مرة بينهم، وقد فعل شيئًا حقًا من أجلهم، حياهم بابتسامتة هو والملك عثمان في فرح، ثم أخذ القائد النبيل عُبيدة مسرعًا ليتفقد جراحه ويطمئن عليه داخل القصر، ثم نزل يونس من حصانه أمام بوابة القصر الذي كان ينتظره أبيل أمامها، احتضن أبيل فور لقائه بيونس وحمد الله على عودته سالمًا، أتى الملك عثمان بجانب يونس، ليخبر يونس أبيل كبير الخدم بأن الملك عثمان هو من ساعده وأنه مثل أخيه، فشكره أبيل على كل ما فعله من أجل هذه المدينة، ثم شكره يونس أيضًا كثيرًا، واحتضنه، نظر إلى الكتاب المضاء ثم قال أبيل: قد حان موعدك رحيلك يا بني.

قال بعد أن تغير وجه في حزن: كيف؟

رد أبيل ويقول: قد أنار ضوء الكتاب، وهذا يعني أنك قد أديت دورك على أكمل وجه.

تعجب الملك عثمان بما قاله أبيل، وأدرك هنا أن كل مدينة لها قانون بمفردها، فتعجب أكثر من هذا العالم المليء بالأسرار، وقبل استكمال الحديث من يونس، آتى القائد من داخل القصر، يخبرهم بأن عُبيدة قد أفاق، دخل يونس والملك عثمان وأبيل معه سريعًا لداخل الغرفة التي بها عُبيدة، الذي

عاد إلى وعيه وابتسم فور النظر إليه، فأتى يونس بجانبه، وقال: حمدًا لله على عودتك يا أخي.

اطمأن عليه جميع الحضور أمامه، ثم أتت يمنى مسرعة إليه تتفقد جرحه، مرت دقائق عليهما وقد نسى أمر رجوعه إلى عالمه، فقال أبيل: بقي القليل يا يونس.

تبدل حاله إلى الحزن في لحظة، ونظر له عُبيدة الذي لم يفهم شيئًا، وقال: ماذا يحدث؟

قال أبيل: قد حان موعد يونس للذهاب إلى عالمه.

اعتدل عُبيدة في جلسته وقال موجهًا حديثه له: كيف هذا يأخي، لا أريد فقدانك.

قال يونس وعيناه تدمع: هذا قانون يا أخي، وأنا حقًا لا أريد فقدانك أيضًا.

وقف أمام عُبيدة في حزن، ثم احتضنه بين يده، بدأ عُبيدة في البكاء منهارًا يمسك في ملابسه، وقال:

ستظل صديقي وأخي دائمًا، وربما سآتي مجددًا لا أعلم، ولكن ستظل دائمًا في قلبي وعقلي.

ابتسم له وقال: وداعًا يا أخي العزيز.

خرج يونس والجميع من غرفته، ثم أخبره أبيل بأن طريق رجوعه من

غرفته الملك كما ذكر الكتاب، تذكر رؤيته لشمس، وأخبره أبيل أنه لا وقت كبيرا للقائها، فذهب بسيفه الذي أمسكه بيده خارج القصر، صاح الأهالي مجددًا وشكره على ما فعله من أجلهم، وابتسم لهم برفع سيفه إلى الأعلى، ونظر إلى شمس التي ظلت واقفة خلف الأهالي بمفردها بعيدًا، ثم نزل من درجات سلم القصر لتفتح بوابتها، تكون طريق بين النساء والرجال المهللين له في سعادة، مر بينهم ممسكًا بسيفه، كانت شمس تقف في نهايه الطريق بين الناس، ثم أتى أمامها، وقال: قد حان موعد رحيلي الآن.

قالت وعلى وجهها التعجب: إلى أين؟

قال: إلى عالمي الذي أتيت منه.

قالت شمس بعد أن تبدل وجهها بالحزن: هل ستذهب حقًا؟

قال: نعم، وأريدك معي.

قالت شمس: من الممكن أن تظل هنا أفضل، أنا أحبك.

قال يونس محاولًا أن يخفي حزنه لفقدانها: هذا قانون المدينة.

قالت بعد أن سالت الدموع من أعينها: وهنا عالمي يا يونس، لن أتخلى عنه، هنا كل شيء حدث لي، يكفي أن ذكريات أبي وأمي هنا.

قال بتأثر: لكِ الحق، وإن جاءت الفرصة لكي آتي إلى هنا مجددًا، سأفعل هذا من أجلك. قالت شمس وهي تنظر إليه: وماذا يحدث إن لم تذهب؟

قال: لا أعرف، سأحاول فعل هذا.

اقتربت منه وأمسكت بيده، وقالت: أريدك في عالمي يا يونس.

ثم ضمها يتحسس وجهها بيده وبدأ في البكاء أكثر، وقال لها:

سيظل قلبي متعلقًا بك دائمًا أيتها الأميرة،، ربما نتقابل مجددًا دون فراق، لن أنسى ما شعرت به معكِ، ضحكتك الجميلة، عيناكِ الساحرتان اللتين لم أخجل من النظر لهما مرارًا وتكرارًا، لذلك أحببت اللجوء بين كتافك ليخفف عني ما أتحمله، ليختصر بيني وبينك حديثا كبيرا ومريحا لقلبي.

قال أخيرًا قبل انصرافه: قلبي لك دائما أيتها الأميرة.

ذهب من أمامها مبتسمًا لها، ثم استدار إلى الطريق أمامه بين الأهالي وهو ممسك سيفه، يمشي ينظر أمامه مفكرًا، ليقول في صمت بين الناس:

أحببت أن أقود حربي بسيفي، أحببت النصر بنفسي، ليس في هذه المعركة فقط، أنا دائمًا في معارك، مع نفسي، مع رأسي، أو في داخلي، لم يتوقف الصراع، نحن دائمًا في صراع كبير، كثرت الدماء كثيرًا هنا، ثم أتى النصر بفضل الله، ستصمد هذه المدينة بفضل سكانها، وستظل عزيزة لمن أحبوها، وستظل كريمة لكل محبيها، فلك العزة يا الباب.

ثم وقف أمام القصر ينظر له إلى أعلى، ثم التفت برأسه إلى المدينة بأكملها، بعد أن صعد درجات سلم القصر وبجانبه أبيل والملك عثمان والقائد، وقال:

رأيت وتعلمت حقًا في هذه المدينة، مدينة إلباب.

ودَّع المدينة وأهلها الذين عانوا في السنوات الماضية، من الملوك والحكام الذين أخذوا خيراتها وسفكوا الدماء، وكأن القتل كان مباحا لكل من جاء

هنا، ثم سلم على الملك عثمان وشكره كثيرًا لما فعله معه، واحتضنه، حزن الملك عثمان لعدم رؤية يونس مرة أخرى، وأخبره الأخير أن من الممكن أن يجتمعا مثلما اجتمعا هنا، ثم جاء أمام أبي عُبيدة، وأخبره أن من الصعب أن يقابل شخصًا مثله محب لمدينته هكذا، وشكره القائد لما بذله من جهد، ووعده أن كل شيء في المدينة سيبقى كما هو، من تعليم الأطفال وتعليم الصلاة وأن يكون الحكم بينهم بالعدل، ضمه يونس بين ذراعه مودعًا له في حزن، ثم تقدم مع أبيل بخطواته الثقيله التي لا تنوي الذهاب عن هذه المدينة، إلى السلم المؤدي إلى غرفته، وقبل الدخول نظرة لهم نظرة أخيرة بابتسامة شوقًا لهم، ليعلم الله كم أحب هذه الناس، وسكان هذا العالم، ثم دخل إلى غرفته مع أبيل ممسكًا بكتاب المدينة المضاء بالأبيض اللامع، رآى مربعًا خشبيًا مفتوحًا على أرضية الغرفة، وبنظرة أبيل له علم أنه طريق رجوعه كما أخبره الكتاب سابقًا، ثم غير ملابسه القديمة التي جاء بها إلى المدينة والتي كان يخبها أبيل في غرفته بجانب الكتاب، تقدم الاثنان معًا أمام المربع الخشبي، ونظر يونس أسفله ليرى الباب الذي فتحة مسبقًا، وعليه بصمة يد، ثم نظر إلى أبيل ليودعه هو الآخر، أخذه أبيل يمسك برأسه بيده وينظر له دون حديث، وبعد مرور دقيقة قال أبيل:

يعلم الله انني أحببتك حقًا يا ولدي منذ اللقاء الأول بيننا، وأيقنت حقًا بأن قلبك صاف.

ثم نظرة في عينيه واستكمل: ستذهب الآن إلى عالمك بسلام، ولكن تذكر أن لا تبح بسر من أسرار الحياة هنا حسب قوانين الكتاب، وأيضًا ربما يضاء

الكتاب مرة ثانية لتأتي إلى هنا، فلا يعلم هذا التوقيت إلا الله، أو ربما لا تأتي مجددًا، فاستمتع بحياتك في عالمك وتذكري يا يونس الحبيب.

ابتسم له وهز رأسه في صمت، موافقًا لما قاله أبيل، ثم تحرك وجلس أرضا، وأسند أرجله أسفل السلم المنحدر الذي يؤدى إلى الغرفة، نظر إليه مفكرًا في شيء، ثم قال: ماذا يحدث إن لم أذهب إلى عالمي؟

قال أبيل أخيرًا: ستكون قد خالفت الكتاب يا بني.

صمت يونس ونظر إلى أجزاء الغرفة التي كان يعيش فيها، ثم نظر إلى اسفل السلم مسميًا الله، ثم نزل إلى درجات السلم، وأغلق باب الغرفة سريعًا، فلم يتعجب، مثلما حدث سابقًا، كانت نفس الجدران برائحتها الطيبة، والبرواز المعلق على الحائط بصورته الشبيهة تمامًا، تذكر قبل الاتجاه للباب، أنه لم يعلم من أبوه حتى الآن، ولم يتعرف عليه أحد، ثم اتجه أمام الباب، وبيده اليمنى لمس بها الباب كي يفتح، فتح الباب سريعًا أمامه، ثم انبعث في وجهه الضوء الأبيض الذي أخذ جسده في لحظات، وأغلق الباب ومرت عليه دقائق منغلق العينين، فتحت عيناه وأدرك إنه في نفس الغرفة، ولكن هناك سلمًا خشبيا متجها إلى الأعلى، صعد إلى الأعلى، وبعد طلوعه أغلق الباب المثبت في الأرض، كأنه لم يكن موجودًا من الأساس، ليرى غرفة أشياؤها مبعثرة ورائحتها كريهة، وعلم إنه داخل القصر المهجور في قريتة، ثم اتجه خارجه، بإزاحة شباك العنكبوت من أمامه ويخرج منه، لم يعد يفكر في شيء سوى الذهاب إلى بيته، ويكتب بأوراقه وقلمه ما حدث معه، فمشى في شوارع القرية المظلمة، ينظر هنا وهناك، بين بيوتها السكنية ليلًا، نظر إلى

بيته الذي كان مضاءً بنوره وتعجب من ذلك، ثم اقترب منه ودخله، يتجه بخطواته السريعة على سلمه، حاول فتح بابها ولم يفتح، نسى أمر مفتاحه ثم أخذ يفتش في سترته فوجده داخلها، ثم فتح الباب سريعا ودخل، صُدم مما رآه أمامه، كان في البيت رجل جالس على كرسيه مستدير ظهره إليه ينتظره، قال بغرابة: من أنت؟

قال الرجل الجالس: أخفيت عنك سرًا يا بني.

سمع صوت الرجل كأنه يعرفه تمامًا، ثم وقف أمامه، وعلم أنه عم منتصر صديق عم إدريس، تقدم إليه بخطواته البطيئة مسندًا على عصيه، وقال: هل أتيت بمفردك؟

تعجب يونس من سؤاله كأنه يعلم شيئًا، ثم قال: نعم بمفردي.

فكر عم منتصر أمامه كأنه يعيد تذكر شيئًا، غضب من هدوئه وقال:

أخفيت عني ماذا؟

تقدم عم منتصر خطوه أخرى أمامه، وأطال النظر إليه وقال: من المفترض أن يكون والدك هناك، في مدينة إلباب.

شعر بقشعرينة في بدنه عندما تلقى كلماته الأخيرة، ثم جلس مصدومًا ويده على رأسه منهارًا مما حل به، يفكر من كان أبيه هناك في المدينة، و قابلة وهو لا يعرف أم لا، وتذكر أيضًا إنه قتل عددًا من البشر ومن الممكن أن يكون أبوه فردًا منهم، نظر إلى عم منتصر مجددًا بغضب شديد الذي لا يعلم من أين أدرك هذه المدينة، ولما أخفى عنه هذا السر، ولكن لم يأتِ في

رأسه سوى أبيه الذي لا يعرفه، تقدم أمامه وقد تغير وجهه من هذه الألغاز اللعينة، ثم وقف أمامه مباشرةً، وقال بغضب شديد:

ما اسم أبي؟ من كان أبي هناك ؟

نظر إليه منتصر الذي أدرك أن يونس في قمة غضبه وصمت قليلًا مفكرًا، ثم نظر في عينيه، وقال:

بلال.

(تمت بحمد الله)

ختاماً

- شكر خاص لكل من عاوني في كتاباتي:
- هشام نعمان
- نادر عبد الرحمن
- عبد الرحمن حسين
- وأخيراً الرجاء بالدعاء بالرحمة والمغفرة إلى أخي العزيز الذي فارق حياتي عن قرب فلكم كل الشكر.